

احتفال الأزهر

باستقبال شيخه الجديد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مأمون الشناوى

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المحبوب حفظه الله ، فأسند مشيخة الأزهر الشريف إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى .
وصدر الأمر الملكى الكريم مساء يوم الأحد ٧ ربيع الأول عام ١٣٦٧ (١٨ يناير ١٩٤٨) .

وكان لبأ هذا التعيين الميمون ، والثقة الملكية الكريمة ، أعظم صدى في محيط الأزهر ، وفي القطر المصرى . والشرق الإسلامى كله ؛ لما عرف به الأستاذ الأكبر من سمو في الخلق ، وعظمة في الروح ، وقوة في النزعة الدينية الإسلامية .
وفي صباح يوم الثلاثاء ٩ ربيع الأول ١٣٦٧ شرف فضيلته الإدارة العامة للأزهر في وسط مظاهرات رائعة ، وحفارات مقطعة النظير ، اشترك فيها الطلبة والأساتذة والموظفون والشعب ، وكان الجميع يهتفون بحياة جلالة الملك منقذ الأزهر ، وحياة الأستاذ الأكبر .

وقصد فضيلته مكتبه وسط الزحام الشديد ، فألقى فضيلة الأستاذ محمد المدنى المدرس بكلية الشريعة ، ثم فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى المدرس بالأزهر ، ثم حضرات الأساتذة : حسن جاد ، ومحمد جلال ، وعبد الرازق سلمان ، ومحمد خليفة ، ومحمد العزازى ، وغيرهم - كلمات وقصائد في تهنئة الأزهر بشيخه الأستاذ الأكبر ، معنيين شعورهم الطيب نحو فضيلته ، وابتهاج الأزهر كله بتوليده مشيخته ، وأملهم في مستقبل عظيم للعلم والعلماء في عهد فضيلته .

كذلك ألقى الأستاذ عبد الحميد الهاشمى رئيس البعثات السورية بالأزهر وكلية أصول الدين كلمة ترحيب وتهنئة قوبلت بالتقدير والتصفيق .

وفي موجة من الفرح والبشر والابتهاج ، ألقى الأستاذ الأكبر كلمته في شيوخ الأزهر وطلابه ، فكانت تقابل بالهتاف المتواصل بحياة الملك منقذ الأزهر وحياة الأستاذ الأكبر المصلح ، الشيخ محمد مأمون الشناوى .

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ حسن جاد المدرس بكلية اللغة العربية :

سرت باسمك البشري فعاودنا البشرُ وعادت لدين الله آماله الغر
ودانت لك الأيام بعد اعتسافها وأقبل في دنياه يعتذر الدهر
وأشرق نور الحق فانقشع الدجى وطالما صبح عن الخير يفتر
وراحت أساطير الظلام شديدة يطاردها في جيش أنواره الفجر
تداركت المعمور أقدارُ رحمة والله فيما قد ألم به سر
وأفقه الرحمن بعد احتضاره وبارب شر منه ينتظر الخير
فقل للذي قد ضاق بالصبر صدره رويدك إن العسر يعقبه اليسر
وقل لسكاري التيه : موسى أنا كمو أقبلوا من الأوهام قد بطل السحر
وقل لبني المعمور أؤسأ وخزرجاً تداركم مأمونه الصادق النير
وقل لبني الوجهين إن أباكم هو الأزهر الحاني وأمكمو مصر
وأنتم جناحها إذا هيض منها جناح فلا يرجى رقى ولا طير
فقيم أثرتم فرقة جاهلية يشب لها في ساحة الأزهر الجمر
تداركه الفاروق فالتام أمره ولولا يد الفاروق ما التأم الأمر
وآسى بمأمون نوازي جرحه قامت نوازي الخطب والنخم الشر
صبرنا الى أن بارك الله صبرنا وأجمل شيء في الحياة هو الصبر

فعد يا إمام المسلمين لمنصب أضرب به الشوق المبرح والهجر
تهلل لما عدت حراً مكرماً يحالفك السعد المؤازر والنصر
خلعت عليه من وقارك هبة فأضحى عزيزاً لا يلم به ضمير
عرفت أبي النفس لا تعرف الهوى ومن آفة الأحلاق أن يعرف السكر

فأدرك حى المعمور من محنة الهوى فأنت له فى حادثات الهوى ذخـر
هو الفلك ضلت فى متاهات بحرها وعجت أواذيه وماج بها البحر
وما أنت يامأمور إلا منارها ومرفقها الهادى إذا ما نأى البر
فوحـد على الحب الجميل صفوفه وضم بنيه لا يلم بهم وتر
وكن والدًا لكل يأسو جراحهم ويستل ما يضى النفوس وما يعرو

أهنيك يامولاي والناس كلهم يهتئى حتى سما بك لى قـدر
وما أنا إلا للعالى مهنيـم فقد هز أعطاف المعالى بكم فخر
ومثلك لا يزهى بغر قصائدى ولكن به تزهى قصائدى الغر
رجوناك يامأمور للخير والهدى ومثلك من يرجى على يده الخير



وهـا هـى قصيدة فضيلة الأستاذ الشاعـر الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى :

يوم تشيد بذكره الأيام قد عز فيه الدين والإسلام
المسلمون استبشروا وتيامنوا والأزهر ابتسمت له الأيام
لبست مآذنه الضياء وكبرت أركانه ودنت له الأحلام
وعلت بحياه ابتسامه شاكر واختال فيه شيوخه الأعلام
وازدادت منبره بكل مفوه ينبىك عنه جبينه البسام
وتسامع الطلاب بالبشرى ويا لجلالها فإذا الحياة سلام
وتضج من فرح معاهده العلى وترف فى أجوائها الأعلام
يوم تلالا فى الكنانة نوره وتسير تحمد فضله الأعوام
من ذا سوى الفاروق يكسوه السنا آلاء فاروق عليه كرام

يا يوم أزهرنا المجيد تحية أتت المني وشدا بك الإلهام
 أتت الحياة تدب في أركانها والخير والإخلاص والإقدام
 مأمون قلده الملك أموره مأمون أروع حازم مقدام
 هوفى القلوب نشيدها ورجاؤها هو في الهدى والسابقين إمام
 حفلت صحائفه بكل جميلة لشبابه بكرتها الإكرام
 هو في كواكبه المنيرة شمسها ويند من لآلئه الإظام
 علم التقى والخير والداعى إلى شرف الحياة وفي الخطوب همام
 بيت المعز وجوهر وفؤاد والفاروق بالمأمون ليس بضام
 خلق كما شاء الإله مطهر ومحبة وتعاون وسلام
 وخلاله الإيثار والحسن وما وجد السبيل لعزمه الإحجام
 متبذل لله يمشى خاشعا وله يتمدى السماء هيام
 مضت السنين ونحن نهدم ما بنى أسلافنا وجميعنا أخصام
 وتمو دنا الأهواء ضلت قلوبنا كغيرنا وتباغض وخصام
 أعمالنا الأقوال والجو الذي يحيا به النشء الجديد ظلام
 مأمون تليد الامام أعد لنا عهد الامام لحسننا الأوهام
 نحملت أعباء الإمامة فارعا تنهض بها الأخلاق والأحلام
 وأعد لقدس الدرس ماضى مجده ترجع اليه سكينه ونظام
 وامنح الشقاق بمعهد هو أسوة للمسلمين وموتل وعصام
 يتفامل الوادى بوجهك واخى والأزهر المعمور والإسلام

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ السباعي الشناوى

قم حتى مأمونا وحى الأزهرنا واحترف به أستاذ مصر الأكبرا
 شمس تضيء المشرقين كأنها شمس الرسول سماؤها أم القرى

فيض من الاخلاص يغمر قلبه يا نعم إخلاصا يقود إلى الذرا
 أخلصت للعمور في أزماته وأتيته بالمعجزات فأزهرها
 في ساحة الانصاف قدت جهاده فرجعت مرفوع اللواء مظهرها
 قِيمٌ من التقدير لم يظفر بها في أي عهد فانتشلت الأزهرها
 ورفعت رأس بنيه بين لدااتهم وجعلتهم فوق الطوائف مظهرها
 فبني لك التاريخ مجدا خالدا وبأحرف التقدير خط وسطها
 واليوم في التفسير نرجو غيثكم إنا بساحتكم تعودنا القيرى
 قدت السفينة مفردا فأدرتها بمهارة أخذت بالباب الورى

• • •

هي نعمة خلقت لغرس ضغائن ياويله من ذا الذى قد دبرا
 إنا لنطلب وحدة الوادى فلا نبغى لدى الوجهين فصما للعرا
 أبناء مصر إخوة وجميعهم متآزرون ووحدة لن تبرا
 هي جذوة أرسل عليها نفحة من فيض قطرك تستحيل إلى ثرى
 وأثر نسيم الود في جنباته من بعد ما عصف الزمان وغيرا
 من كان كالمأمون في نفحاته حل العويس من الأمور وأكثرا
 أو كان كالمأمون في عزماته ساس الجميع بعزيمة لن تنهرا
 هو نفحة الرحمن أرسله هدى للعالمين ورحمة وتبصرا
 ولكم دعونا فاستجيب دعاؤنا وأنى لنا المأمون شيخا أكبرا
 اليمن في يمينه ينثر دره واليسر في يسراه أبهى منظرا

وفود الأزهرين من الأقاليم

وفدت إلى القاهرة جماهير من أساتذة وطلاب المعاهد الإقليمية، وانضم إليهم طلبة الكليات ومعهد القاهرة، واصطفوا في ساحة الجامع الأزهر، واعتلى خطبائهم شرفة الإدارة العامة للمعاهد الدينية يعبرون عن سرور طلاب العلم واستبشارهم بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مأمون الشناوى « شيخاً للأزهر »، وبعد ما فرغوا من مهمتهم، تفضل فضيلته بتوجيه كلمة إليهم، جمعت من ضروب النصائح الأبوية، والإرشادات الأدبية ما يكفل للأزهر والأزهريين عهداً من النهوض والاستمرار يحقق ما يرجى منه لإنشاء جيل يؤدي رسالة الإسلام العالمية على أكمل وجه، وأشرف مآل.

أبنائى :

بسم الله الرحمن الرحيم أفتتح عهدى معكم ، وأتوجه إلى الله بالشكر على عظيم فضله ، راجياً لى ولكم التوفيق والسداد : وأدعو الله الكريم أن يحفظ ملاذ الأزهر وراعيه ، مولانا الفاروق العظيم : فإن أياديه على الأزهر غرام ناصعة ، وأمانيه للأزهر والأزهريين جليلة سامية ؛ وخير ما يرجوه جلالة مولانا الملك أن يظل الأزهر كما كان منذ ألف سنة ، مناراً للعلم والدين ، ومهبطاً للخلق الكريم ، ومنبعاً للأخوة والمحبة الصافية : فإن الألفة بين أبناء ذلك المعهد لما ترفع شأنه ، وتعلو ذكره . وتحله مكان الصدارة فى الفكر ، والخلق ، والدين .

وإني لا شكر لكم جميل شعورك ، وكريم تهانيم ، التي هب عنها خطباؤكم
وشعراؤكم ، وظهرت واضحة في صيحات الاستبشار التي استقبلتموني بها منذ
تفضل مولانا جلالة الملك فأسند إلي هذا المنصب .

كل هذا يحملني واثقا كل الثقة بأن ستكونون عند حسن الظن بكم .
وأنكم أساتذة وطلابا وموظفين ستعملون متكاتفين متساندين ، لمعونتي على السير
بكم وبالأزهر قُدُما نحو الأهداف السامية التي يتمناها لنا جلالة الملك المعظم ،
ويرجوها للأزهر كل محب له ، حريص على مجده . وإني لوائق أننا جميعا نحب
الأزهر ونرجو له كل ازدهار ونماء ؛ وكلكم يعلم أن رسالة الأزهر إنما تتحقق
على أكمل وجه إذا قامت على أيادٍ موحدة ، ونفوس مُصفاة . فلتنسوا كل
ما كان ، ولنجعل عهدنا من اليوم صفاء في القلوب ، وإيمانا برسالتنا ؛ ولتفسر
على بركة الله : ولكم مني - إذا أنتم حققتم أمني - كما حقق الله آمالكم ، فعكف
الطلاب على دروسهم ، والأساتذة على بحوثهم ، أن أبذل غاية جهدي في سبيل
مصلحتكم ومصلحة الأزهر ؛ فاجعلوا معي ، وانشدوا الوحدة ، واركبوا
ما ليس لكم من شئون ، والله يوفقني إلى ما فيه الخير واليمن لكم في حاضركم
ومستقبلكم .

أما تهنئتيكم لي فقد تم التعبير عنها ، ولمستها في فيض عواطفكم ، فاجعلوا
شكري عليها نصيحة خالصة : أن تنحدوا وتتألفوا ، وتقبلوا على دروسكم ،
ودعوا لي الفرصة لأعمل في جو هادي ، كي أحقق لكم الأمل ، فإن الأمل بابه
العمل ، وهو أجدي علينا وعليكم من أوقات نضيمها في القول والتهاني ،
وقيل آخذوا فسيرى الله عملكم ورسولته والمؤمنون .

وبعد ، فإن عهدي إلى العالم الإسلامي أن أعمل لخدمة العلم والدين ،
وأن أفسح المجال في الأزهر لكل طالب وباحث هدفه العلم والدين ، مهما تباعدت
أوطانه ؛ فالأزهر كعبة لكل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، ولكل وافد
عندى العون والمساعدة ، ليلبغ من العلم ما يريد ، حتى يعود إلى أهله داعيا
للأزهر ، وناشرا لدين الله . وعهدي إلى العالم الإسلامي أن أعمل على نصرة

قضية العروبة والإسلام ، والتسكين لكلمة الله ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . .

وأخيراً أقول لكم جميعاً : إن بابي مفتوح لكل ذى حاجة ، وإنه لا فرق عندى بين أستاذ وأستاذ ، ولا بين موظف وموظف ، ولا بين طالب وطالب ، إلا بالتوفر على العمل ، والإخلاص فيه . مَنْ تَعَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ . وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . .

« وأكرر لكم جميعاً شكراً على عظيم استقبالكم . وكرام حفاوتكم ، وحسن ظنكم ، وأدعوكم إلى العمل من الساعة . فاعملوا . والله معكم ، ولن يَبْزِغَ كُمْ أَعْمَالُكُمْ .

وإني أبتهل إلى الله جلّت قدرته أن يحفظ مولانا جلالة الملك ، وأن يديم على الأزهر عطفه وبره . كما أضرع إليه أن يعيد على العالم الإسلامى ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت آمال المسلمين ، فى مجد العروبة وعز الإسلام . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأستاذ الأكبر في الوفود

يوم الأحد ٢٥ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله على فضله العقيم . سبحانه ما أعظمه من منعم ! فقد مهّد لنا أقوم السبل الى خير ما أحب وتحبون : وأرفع آيات الشكر والولاء الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم على سامى عطفه علينا ، وكريم بره بالأزهر والعلم والدين ، وعظيم رعايته لأمور المسلمين : وأشكر لكم جميعاً ما أبدىتموه من حفاوة ، وأقدر ما تحمّلتموه من مشاق . وإنه ليزيدنى اعتباطاً أن أجدكم دائماً عند حسن الظن بكم رجالاً تعرفون واجبهكم في الحياة العلمية والاجتماعية ، فتكرسوا وقتكم لتحصيل العلوم والمعارف ، وتبذلوا قصارى جهودكم في حماية الدين ونشر مكارم الأخلاق ، وبهذا تكونون قد أدبتم رسالة الأزهر الى العالم كأزهر بين عاملين . وكونوا إخواناً كما أمركم الله .

وبعد ، فقد مضى من العام الدراسي وقت غير يسير ، فأرجو ألا تدعوا فرصة العمل فيما بقي منه ، فسا ذلك أجدى عليكم وأجدر بكم ، وانشدوا الاتقان فيما تعملون فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . وسارعوا الى ما وجب عليكم مترسمين الاخلاص لله وللعلم حتى نجنى الثمار جميعاً ، وإنها بفضل الله ومشيئته عزة للأزهر ، ومجد للعروبة ، وقوة للمسلمين ، وسلام على العالمين .

وأخيراً اعلبوا أن أبناء الأزهر لدى سواء ، ولكن كل بعمله ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا التوفيق ، وأن يمدنا بروح من عنده ، وأن يحفظ مملكتنا المعظم فاروق الأول ، أعزه الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الاستاذ الاكبر

في طلبة معاهد الاقاليم

يوم الاربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الأعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله . أقدر لكم هذا الشعور الفياض ، وأحيي فيكم هذا الروح الكريم الذي ينم على عظيم إخلاصكم وصادق محبتكم وشدة تفانيكم في تقديركم للثقل العليا ، وتعلقكم بها . وأشكر لكم هذه الثقة الغالية التي لا تفتأون كل يوم تظهرون منها ما يثبت أركانها ويوطد دعائمها ، ويقوى من عزيمته الذين تتوجهون اليهم بها ، وأبادلكم تحية بتحية ، وإخلاصا بإخلاص .

أبنائي :

تعلمون أن الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، وأعظم مؤسسة في التاريخ قامت بحفظ الشريعة الغراء ، وحراسة اللغة العربية ، وحملت وحدها عبء الثقافة والتعليم في الوقت الذي لم يكن في الشرق جامعة ولا مدرسة غيرها تقوم بمثل هذا الواجب . وأؤكد لكم أنه لولا وجود الأزهر في تلك الحقبة التاريخية الطويلة لعمت الجهالة ، وانتشرت ظلماتها بين الناس ، وانتاب التأخر والانحطاط كثيرا من نواحي الحياة ، وغلبت على الشرق كثرة من الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي كان يصعب تلافيتها .

فالأزهر من هذه الناحية قد قام بأعظم الخدمات وأجل الفوائد للإسلام والعرب والشرق ، بل وللإنسانية جمعاء . فواجبنا نحن أبناء الجيل الحاضر إزاء

هذه الجامعة المجيدة أن نحافظ على هذا التراث العظيم ، وأن نرعاه ، وأن نتابع جهودنا ونبدل كل قوانا في سبيل الإبقاء عليه وإنماء ثروته وازدهارها ، والنهوض بها قديما ، حتى نكون خير خلف لخير سلف ، وحتى نستحق أن نوصف بأننا أبناء بررة لأوائك الآباء الأبحاد . وغنى عن البيان أن هذا كله لا يتم ولا يتحقق إلا بحسن قيامنا بواجبنا ، وعنايتنا بما وكل إلينا ، والتفات كل فرد منا الى واجبه المنوط به ، ليؤديه على الوجه الأكمل ، ويضعه في وضعه الصحيح .

وإنه لطيب لى فى هذا المقام أن أنهى اليكم أن جلالة مولاي الملك المعظم يعطف على الأزهر وأبنائه كل العطف ، ويرعاهم أعظم الرعاية ، ويسره أن يبلغ جلالاته عنهم قيامهم بواجبهم وتأديتهم رسالتهم ، وتفرغهم للاشتغال بالعلم وحده ، وابتعادهم عن كل ما يحول بينهم وبين أى شىء من ذلك .

أمد الله فى حياة جلالاته ، وأيده بروح من عنده ، وأعز به الدين ، وجعل عهده كله خيرا وبركة على الاسلام والمسلمين ، والأزهر والأزهريين .

والسلام عليكم ورحمة الله .
مركز تحقيقات كليات العلوم - راسدى

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
يذيع كلمة قيمة عن هذا العيد بالراديو

يوافق اليوم الحادى عشر من شهر فبراير تاريخ ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ، وقد جرت العادة أن يحتفل به الشعب المصرى وحكومته احتفالاً عظيماً ؛ بإقامة الزينات ، ورفع الأعلام ، وتسيير المواكب ؛ فرأى جلالاته مراعاة للناتج العام بما أصاب فلسطين ، أن يقتصر الاحتفال به على الرسميات ؛ فضرب جلالاته بهذا العمل مثلاً من أروع الأمثلة على الشعور العالى ، والنظر الرفيع . ونزولا على الإرادة الملكية السامية رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر أن يكتب بإذاعة كلمة بالراديو فى هذا اليوم الأغر ، تجمع من مناقب جلالة الملك ، وما أثره الخالدة ، ما لا بد من الإشادة بذكره ، والنيمن بنشره : فجاءت على إيجازها بليغة جامعة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس المستمعين من سائر الأقطار العربية .

ونحن تيمناً بهذا العيد الكريم نفشر كلمة فضيلته ، ونضم صوتنا إلى صوته فى الدعاء لحضرة صاحب الجلالة ، بأن يطيل الله فى حياته ذخراً لأمته ، وملاً لآذانه لرعيته ، حتى يتم ما بدأه من إبلاغ بلاده سائر أمانيتها ، وجمع كلمة الأمم العربية ، وتوحيد جهودها ، حتى تبلغ شأواً وأثلاً عظيماً وعملاً ومدنية .

في المسنن العكونية :

التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن

قانون الاسباب والمسببات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ

محمد عبد اللطيف دراز مدير الازهر (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة : السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد . فمذ قريب تحدثت من هذا المنبر العام عن التوافق بين آيات الكون ، وآيات القرآن . ، مبتدئاً بهذا على أن منزل القرآن هو خالق الكون جل جلاله : وأشرت يومئذ إلى أن هذا الدليل لم يتدعه أحد من الناس ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي لفت أنظارنا إليه ، حيث يقول ، منوهاً بهذا التوافق ، وأنه برهان دامغ على أن القرآن من عند الله : ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . وضرربنا مثلاً لذلك ، الوحدة ، التي تتجلى في مظاهر الكون من أعلاه إلى أسفله ، ويقوم عليها نظام آياته البينات في الآفاق وفي الأنفس ، وهي نفسها أسس القرآن : بل إن الوحدانية هي أساس دعوته ، حتى لو أردت أن تجمع الإسلام في كلمة واحدة ، لما وجدت أجمع له من كلمة التوحيد : فهو ينادي بوحدانية الله ، ووحدانية الدعوة التي نزلت بها الكتب ، وجاءت بها الرسل : وينادي بوحدة الإنسانية في الأصل والعصر ، وبوحدتها في الحقوق التي يقتضيها نظام الحياة : من الحرية ، والعدالة ، والإخاء ، والمساواة .

والمثل الذي نضربه اليوم على هذا التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن هو ، قانون الاسباب والمسببات .

(*) من أحاديث فضيلته في الإذاعة

وإنما اخترت هذا المثل ، لأنه — فوق فائدته العلمية النظرية — سيفيدنا فائدة أخرى عمالية واقعية . ذلك أن كثيراً من المتدينين يعتقدون أن الدين إنما يقوم على المعجزات وخوارق الآيات ، وأنه ليس من الأصل فيه أن يضرد مع السنن الكونية ، حتى لقد غالى أتباعه في بعض العصور فخطروا النظر في أصوله ، وقصروا فهمها على طائفة قليلة منهم سموها « رجال الدين » فأساءوا بذلك إلى الدين إساءة بالغة ، بما حالوا بينه وبين الناس ، بل بينه وبين مدلوله الذي يريد الله منه . فإن الدين للإنسانية عامة ، لا لطائفة خاصة منها : إذ هو عقيدة الناس . وهو شريعتهم ، ولا يتأتى أن يعتقد الناس ما لا يفهمون . ولا أن يشترعوا شريعة تنأى بهم عن واقع الحياة . فكان ذلك أعظم سبب في عزلة الدين وإبعاده وإبعاد رجاله عن معترك الشؤون الدولية ، مع أن هداية الناس إلى الحق وإلى الاستقرار في الأرض لن تكون إلا على أساس الدين . وحيرة الإنسانية وضلالها وتناحرها الآن ، وهي في أوج المدنية والمعرفة ، خير شاهد بصدق ما نقول . والذي أريد أن أقوله : هو أن الإسلام لم يأت الناس بما لا يفهمون ، ولم يحمّلهم ما لا يطيقون . ولم يخرج بهم عن واقع الحياة فيما يحسبون وفيما يفعلون : فهو يسير مع الكون خطوة خطوة ، وخطرة خطرة . يتساوقان ويشجوان . كأنهما الشخص وظله . أو الصدى وصوته ، بل الجسد وروحه ، والمادة وحياتها . وكما كانت الوحدة التي دعا إليها وحيدة شاملة من أعلى عليائها إلى نهاية مداها ، فكذلك قانون الأسباب والمسببات ، هو عنده عام شامل لا يخرج على كفته شيء . فلا يتعاضده كبير . ولا يفلت من حكمه صغير .

يقول الإسلام للناس : آمنوا لتهدوا ، وتحابوا لتسعدوا ، وافعلوا الخير لتفلحوا ، واعدلوا لتأمنوا ، وازرعوا لتحصدوا ، وتعلموا لتعرفوا ، واسمعوا لتتالوا ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ويتناهى عن القعود وتمشي الأماني الباطلة : فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة : وإن العزة والسعادة والمجد لا تنال بالآواكل والتواني ، والاعتماد على كرم الأنساب وشرف الأحساب ، والتشديق بالأديان ، والتفاخر بالقوميات . ليس بأمانيتكم ولا أمانيت أهل الكتاب : من يعمل سوماً يحجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً .

وهذه هي سنة الكون نفسه : لا بد لكل غاية من وسيلة ، ولكل نتيجة من سعي . ولكل أمل من عمل ، ولكل مقصد من الخير سبيله التي تهدف له وتوصل إليه . فهو إذا قانون واحد تقرأ في القرآن كما تشهد في الأكوان ، ومنطق واحد يعبر عنه الكون بلسان حاله كما يعبر عنه القرآن بمقاله . وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . . هذا هو . قانون الاسباب والمسببات ، الذي أخذ الله به العالم أخذاً ، كما هو الشأن في سائر مظاهر السنة الإلهية : هي محكمات من الأمر لا تقض ، وعزائم لا رخصة فيها لأحد ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إلى الله . فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً . .

وأقرب مثل يحضرنا لهذا ، ما حصل للمسلمين في موقعي أحد ، وبدر قبلها ، حيث اختلفت الاسباب . فاختلفت النتائج تبعاً لها .

فالقدر كان لهم من أسباب النصر في بدر ، على قتلة عددهم وعددهم ، وحدة لا تنقسم عروتها ، وعزيمة لا يفل حذوها ، وإيمان تنزلت عليه الملائكة من السماء ، وصبر يزن به المسلم عشرة من الأعداء ، واثقياد وطاعة بلغ من شأنهما أن قال المسلمون للنبي : أما إنا لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . بل نقول : إنا معكم مقاتلون : سر بنا يا رسول الله كما أمرك الله ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه ورايك ما تخاف منا أحد . ثم لا قوا أعداءهم على هذه الاسباب القوية ، التي أمدوا بها أنفسهم ، فأمدتهم الله بمعاونته وتأييده ، وكان ذلك نصراً عزيزاً انتلفت على تحقيقه لهم أسباب الأرض وأسباب السماء .

أما في أحد : فلم يكن شيء من هذا ، بل كانت ظاهرة الخلاف أبرز ما كان من أمرهم : خالفوا الرسول في عدم الخروج إلى الأعداء — وكان عدم الخروج رأيه عليه الصلاة والسلام — ثم خالفوا أثناء السير إلى القتال : فأنخذل « عبد الله ابن أبي » بثلاث الجيش من أتباعه المنافقين . ثم خالفوا عن أمره أثناء القتال ، فلم تنفذ فرقة الرماة أمره كما أراد . وكان إهمال هذه الفرقة هو السبب المباشر فيما أصاب المسلمين يوم أحد . وبعض ذلك فضلاً عن اجتماعه كاف في الهزيمة .

ولقد وقعت الهزيمة فعلا ، ونفذت سنة الله كما تفقد دائما ، وإن أصابت في إمضائها وقهرها أقرب الناس إلى الله ، وأعظم أهل الأرض إيمانا بالله ، محمداً صلى الله عليه وسلم وجيشه من المؤمنين ؛ فقتل نحو سبعين من أبطالهم ، وكانوا هم قد أصابوا أعداءهم بمثل هذا العدد يوم بدر ، حيث قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ؛ فلما ارتاع بعض المسلمين للهزيمة وإن لم تخف عليهم أسبابها ، وجعلوا يتعجبون قائلين : أنى هذا ؟ وكيف نهزم وفينا رسول الله ؟ رد الله عليهم بقوله : « أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم » ، فأنتم الذين تسببتم في هذه الهزيمة بخلافكم على قائدكم ، وفشلكم في أمركم ، وعدم إخلاصكم في عزيمتكم ، ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسسونهم يأذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين .

وفي هذه الموقعة نزل ذلك السياق الرابع الذي يبدأ من قول الله جل شأنه : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » ، والله سميع عليم ، إلى نحو ستين آية بعدها من سورة آل عمران .

وفي هذا النسق الطويل من تأديب القرآن ، وبالغ حكمته ، وبيان سنة الله في الكون ووجوب رعايتها ، ما لا يتسع هذا المجال للإفاضة فيه . ولكن حسبك منه الآن هذا البيان الجامع ، حيث يقول الله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للتقين » .

حضرات السادة :

هل نجد بعد هذا من يخالف عن سنة الله عاجزاً أو جاهلاً ، ثم يسمى عجزه أو جهله توكلًا على الله وتسليماً لأمر الله ؟ وهل نجد بعد ذلك من يحمل روح القرآن وهدى الإسلام فيفسره على غير وجهه ويحمله على غير محمله !

كلمتنا لأمثال هؤلاء المتواكين الجاهلين . أن يتدبروا القرآن ليفقهوا معناه ؛ فإن عجزوا عن ذلك فليتركوا ما لا يفقهون . وكلمتنا إلى المسلمين عامة هي هذه الكرامة التي ساقها الله إلى الناس كافة : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للتقين » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

دعوى الجاهلية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن جابر رضى الله عنه يقول : ، غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعاب^(١) ، فكسبهم أنصاريا ، فغضب الأنصارى غضبا شديدا حتى تداعوا ، وقال الأنصارى : يا لثأر أنصار ! وقال المهاجرون : يا للمهاجرين ! فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوى أهل الجاهلية ؟ ثم قال : ما شأنهم ؟ فأخبر بكسمة المهاجرون الأنصارى ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها خبيثة . وقال عبد الله بن أبي ابن سلول^(٢) : أقدم تداعوا علينا ؟ لأن رجعا إلى المدينة ليخرجن الأعراس منها الأذل . فقال عمر : ألا نقتل^(٣) ؟ يا رسول الله هذا الخبيث ؟ - لعبد الله - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، يتحدث الناس أنه كان يحمل أحماله ، رواه الشيخان .

ثاب : رجوع ، وقيل اجتمع . لعاب : مزاح . بصيغة المبالغة من اللعب ، وقيل كان يلعب بالحرايب كما تصنع الحبشة . وكسبه كمنعه : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه . وتداعوا : استغاثوا ودعا بعضهم بعضا بدعوى الجاهلية ، وهى أن يقولوا عند الحرب : يا آل فلان ، أو يا فلان ، فيجتمعوا لنصرة المستغيث ولو كان ظالما .

• •

لم يحرص الإسلام على شيء حرصه على سلامة الأمة ووحدتها ، وكشدت بفيانها واجتماع كلمتها : وهو لذلك يحذرهما كل الحذر ، ويشفق عليهما كل الإشفاق ، مما يوهن أمرها ، أو يضعف شأنها ، أو يثلم ديبعتها ، أو يخرج كرامتها وعزتها . ومن تأمل قليلا فى قواعد الإسلام ودعائمه ، وأصوله وفروعه ، وأوامره

(١) أم عبد الله بن أبي ولقد ثبت ألف ابن الثانية ويثون أبي ، لأنها صفة أخرى لعبد الله لا لأبي .
(٢) روى بالنون ، وبالتاء .

ونواهيه ، وحكمه وأحكامه - وجد أسمى غاياته ، وأجل مقاصده ، أن تكون أمته
أجمع الأمم كلمة ، وأعظمها قوة ، وأرفعها مكانا .

وحسبك أن تنظر إليه وقد دعا بمختلف الأساليب وأقواها ، إلى الائتلاف
والتعاون والتحاب حتى نبي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ووعد
المتحابين بأن لهم منابر من نور يوم القيامة ، وأن الله يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله :
وأمر بالتواضع حتى لا يبغى أحد على أحد : وأذهب عن المؤمنين بعد إذ بعث فيهم
رسولا من أنفسهم - عبثية ^(١) الجاهلية ونفخها بالآباء والأحساب ، فكاهم بنو آدم
وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى :
ورغب في إصلاح ذات البين ، وقال إن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول
تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ! وشدد السكير على الفتن ما ظهر منها وما بطن ،
حتى لقد بلغ من نكيره على من أبتظ فتنة أو دعا إليها أن تبرأ منه حيا وميتا ،
فكان ، ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا
من مات على عصبية ^(٢) وقال : من حمل علينا السلاح فليس منا ^(٣) .

وهذه قصة تبين منهجه صلى الله عليه وسلم في سياسة أمته ، وحرصه البالغ
على اتحادها وائتلافها ، والحيولة بينها وبين نزعات الشيطان ، ونزوات الشهوة ،
ومضلات الهوى .

روى أصحاب السير والمغازي أن بنى المصطلق اجتمعوا لحرب النبي صلى الله
عليه وسلم ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من أموالهم يقال له المريسيع ، فهزم الله
تعالى بنى المصطلق وأمكن منهم . ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من
أمرهم وردت واردة من الناس تستقي الماء وتذود الخيل والإبل ، فاشتد الزحام
حتى اقتتل أجير لعمر بن الخطاب يدعى جهمجاه بن مسعود الغفاري . وحليف لبني

(١) بضم العين وكسرهما وتشديد الباء والياء والكسر . وهذا وما بعده اقتباس من
صحيح كتب السنة .

(٢) هي المأذنة عن المتيرة ظلما وعدوانا . والحديث رواه أبو داود عن جبير بن مطعم

(٣) رواه الشيخان في الصحيحين .

عوف يسمى سنان بن مسعود الجهني ، فصرخ الجهني : يا للأفصار : وصرخ الغفاري : يا للهاجرين ! فثارت حية ابن أبي رأس المنافقين وعنده رهط من قومه ، وقال أو قد فعلوها ؟ ناكرونا في ديارنا وكأثرونا في بلادنا : والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : ستمن كلبك يأكلك ! أما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! ثم أقبل على رهطه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم : أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم انحولوا إلى غير بلادكم !

تنهت الفتنة ، وهاج هائج الشر ، وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر ^(١) ، وكانت له معذرة دونها كل معذرة في قتل رأس النفاق والشقاق وسوء الأخلاق ، ولا سيما بعد أن استأذنه الفاروق في قتله ، ثم ابنه عبد الله رضى الله عنه لما قيل له خطأ : إن أبي صلى الله عليه وسلم يريد قتل أهلك !

لكم صلوات الله وسلامه عليه ، وقد آناه الله الحكمة ، وبعثه ليتمم مكارم الأخلاق ، سالك ما هو جقيق به وبخير أمة أخرجت للناس . فنهى عن العصية ، وأخبر أنها خبيثة متنة لا تجلب إلا الوبال والنكال وخبت الفعال ، وأخبر عمر أن قتل هذا الخبيث ليس من الخير للمسلمين ، ولا للدعوة الإسلامية ، فإن دعاة السوء سيشيعون أن محمداً — وحاشاه — يقتل أصحابه ، لأن عبد الله بن أبي كان يظهر الإسلام والصحبة ويبطن النفاق والكفر ! ثم ما أجمل أن يأمر صلى الله عليه وسلم ابنه عبد الله وهو من خيرة صحابته أن يرفق بأبيه ويحسن إليه وقد هم بأن يحمل رأسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، حسماً للفتنة ، وسبقاً إلى الطاعة ، وإثارة لمرضاة الله ورسوله على أقرب الناس إليه وأمسهم به ! . ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه ، ليشتغل كل بنفسه ، ويلهو عما يضرهم نار الحقد والحصام .

(١) بلغه زيد بن الأرقم . وانظر قصته وتصديق الله إياه في تفسير سورة « المنافقون »

وقصة أخرى لا تقل عن هذه شأنًا إن لم تزد عليها، يرويها المفسرون وأصحاب السير أيضا. قالوا: مرقيس بن شاس اليهودي بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية: وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغينة على المسلمين، فقال: قد اجتمع ملائكة بني قيسلة^(١) بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا من قرار! وأمر شابا يهوديا كان معه أن يذكرهم يوم بُعث^(٢) وينشد لهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على بني عمهم: ففعل عدو الله فعلته، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا حتى توائبوا وقالوا: السلاح السلاح! فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين وقال: يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟ فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين: فأنزل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم. قال جابر: فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرًا من ذلك اليوم.

هذا قابل من كثير من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى الألفة والوحدة، وجهاده في نبد الشقاق والفرقة، وحسن بلائه في لم الشعث وجمع الكلمة. فهل آن لأمته، ولا سيما حملة شريعته، أن يستنوا بسنته ويمتدوا بهديه؟ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

تنبيه: وقع سهو أس ٨ ص ٢٠١ من العدد السابق، قباء، والصواب: المدينة.

حاشية: سأل بعض الأفاضل عما ألحق بالحرمين. والخلاصة أن العلماء اتفقوا على مضاعفة الثواب لما زيد في المسجد الحرام، واختلفوا فيما زيد في الحرم النبوي، فذهب النووي وغيره إلى أن التضعيف لا يشمل، ولكن رغبته صلى الله عليه وسلم في زيادته وتحقيق أصحابه لهذه الرغبة دليل على أن المضاعفة شاملة لما زيد فيه. ولعل الإشارة في مسجدى هذا، لإخراج المساجد المنسوبة إليه بالمدينة. وانظر: وفاء الوفاء.

(١) أم الأوس والخزرج وهما الأصل أبناء عم.

(٢) بالفتح وبالهمزة كخراب، ويثالث؟ موضع بقرب المدينة. قاموس.

العقل السليم في نظر القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ معهد فؤاد الأول بأسبوط

القرآن الكريم كتاب الحياة ودستور الخلود . أنزله الله خاتماً للكتب السماوية ، وغاية للوحي الإلهي . وهو وإن كان كتاب الإسلام الذي هو دين الفطرة ، والذي توفرت فيه أنواع اليسر على الناس والتسهيل عليهم فيما يطلب منهم من واجبات : فإنه لم يعول على التقليد ، بل جعل العمل عدته فيما يدعو إليه . والتفكير الصحيح موائمه فيما يشرع للناس ، وفيما يفرض عليهم من حقوق . فأساليب القرآن الكريم رغم تنوعها في هداية الناس إلى الحق ، ومسالكه في جذب النفوس إلى الصراط المستقيم رغم تشعب أطرافها وتعدد نواحيها ، كلها تستمد سلطاتها من المنطق ، وتعتمد على صحيح النظر .

فهو إذ يضع الدليل القاطع بين أيدي الناس ليقفوا على ما فيه من مقدمات ونتائج ، يهيب بعقولهم لتفكر ، ويثير فيهم عاطفة التدبر والنظر . فإذا تناول الرد على منكري البعث الذين يقولون « إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً » قال لهم « كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة » : ليعلموا أن من قدر على المبدأ يقدر على المعاد ، لأنه أقرب منه منالاً ، وأقل مجالاً .

وهو إذ يحول وجهه إلى مسلك آخر من مسالكه في هداية الناس فيأمرهم بإطالة النظر في الآيات الكونية ، والتفكير في أطوار خلق الإنسان في هذه الحياة ، يعتد بالعقل كوسيلة فعالة للوصول إلى الغايات ، وسبب قوى في الحصول على سكون النفوس والقلقة وطمأنينة الفؤاد المشتت . ومن هذا النوع قوله تعالى :

فليَنظُر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، وقوله تعالى : « أنتم أشد خلنا أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغشش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحّاها : أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، وقوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فلا يستجبوا لكم إن كنتم صادقين ، ثم يتدرج معهم الى أن يصدمهم بالحقيقة الواقعة وهي أن الأصنام في مستوى دون مستواهم ، وفي أفق غير أفقهم ، فيقول : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، وهو في كل هذه الطرق والأساليب يعمل على العقل ويحكمه في كل ما يقولون وما يعملون .

والقرآن أيضا إذ يعبد للناس طريق الهداية ، ويمهد لهم سبيل الرشاد ، فيضرب لهم الأمثال ليوازنوا بين الأمور ، ويفرقوا بين الحق والباطل ، ويقضوا على مدى الخاف بين الهدى والضلال ، فيقول : « وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، يعمل على العقل ، ويعتمد على تفكيره ، رغم كون الأمثال وضربها اللفظ ذريعة إلى تفهيم القلوب ، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الآلية ، لأنها تصوير للمعقول بصورة المحسوس ، وإبراز للمعاني في صورة الملموس ، وإلباس المطالب الصعبة المال ثوب المشاهد الذي لا ينسرك ، والمعلوم الذي لا يجادل فيه : ولذا يقول القرآن الكريم : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ، .

بل إن القصص التي يسوقها القرآن الكريم للعبارة والاتعاظ لا يصل الناس الى الغرض منها إلا إذا حاطها العقل ، ولا تؤدي رسالتها إلا إذا كان الفكر رقيقا عليها : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، .

ومن قبيل ما يسميه الناس على الهامش ، نقول : إننا لو تدبنا آيات القرآن الكريم ، لوجدناه ينسب التفكير إلى القلوب في أكثر الأحوال وأغلبها ، فيقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ، « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ، « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، .

وتارة يشير إلى أن مركز العقل هو تجاوزيف الدماغ هناك في المخ والمخيخ
والخاع الشوكي . ولعل استنباط ذلك من قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا
الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، سهل على الناظر البصير .

وهو في الطريق الأول ينظر إلى القلب كعضو ممتاز في جسم الإنسان يوزع
الحياة على أطرافه ونواحيه ، ويمده بأسباب البقاء : والرأس بما فيه مدين للقلب
بنموه وبقائه ، كما يشهد بذلك الطب والتشريح .

ونظرة عجيبة فيها سر دنا عليك من آيات ، وقصصنا عليك من حجج ، تكفيك
للموقف على مبلغ اعتداد القرآن الكريم في دعوة الناس إلى الحق ، بالعقل وتفكيره
والنظر وتدبيره ، والمنطق وبراهينه . فهو لا يعول على سلطان العواطف ،
ولا يعتد بالشهوات والرغبات . وإليك برهان ذلك من الكتاب العزيز :

يقول الله عز وجل لا يه الكريم : إنك لا تهدي من أحببت . . ويقول سبحانه
وتعالى : . عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، ويقول : . وتخشى
الناس والله أحق أن تخشاه . . ويقول : . ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا
للشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، ويقول : يا أيها
النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك . . ويقص القرآن الكريم علينا
قوله إبراهيم لأبيه : إني أراك وقومك في ضلال مبين . . ويقول الله عز وجل : يا أيها
الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . .

ولذلك كله استباح عمر أن يخاطب عليا رضي الله عنهما حين تأخر في بيعه
أبي بكر رضي الله عنه بقوله : وما منا إلا له مقام معلوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ،
وإن زعمت أنك قريب رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، فأبو بكر قريب
منه قرابة ، والقرابة لحم ودم ، والقرابة نفس وروح . .

فالقرآن كما ترى لا يأبه للرغبات والعواطف ، ما دام العقل لا يؤيدها ، والمنطق
لا يؤازرها . فهي رغم كونها غرائز نشأت مع الإنسان وشبت معه ، لم يعرها
القرآن نظره ، بل أقام العقل عليها حارسا أميناً ، يخفف من شماسها ، ويكسر من
حدتها ، ويكبح جماحها : لتكون أداة خير وصلاح .

إسلام قریش فی فتح مکة

لم یکن بالسیف

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعیدی

المدرس بکایة اللغة العربیة

إن مما یشیر أوربا وأمريکا علی الإسلام فی عصرنا الحاضر ، جهلهم بكثير من أصوله الحققة العادلة : ومن أهم ما یجهلونه من هذه الأصول أن الإسلام لا یبيح استعمال السیف فی الدعوة إليه ، وإنما يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة : ومن أثر جهلهم بهذا الأصل ما عمدت إليه بعض المجلات الأمريکية منذ أيام ، من نشر صورة نبينا الکريم فی صورة زنجی را کب علی فرس وفي يده سيف يهدد العالم به : مع أنه لم يدع أحد إلى السلام كما دعا الإسلام إليه ، إذ قال تعالى فی الآية - ٢٠٨ - من سورة البقرة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وقد بلغ من حب الإسلام فی السلام أن اتخذ اسمه تحية اللقاء ، فلا يأتى مسلم شخصاً إلا بادره قائلاً : السلام عليكم ، ليكون السلام شعار المسلمين ، ويكون اسمه أكثر الأسماء ذكراً بينهم .

وقد تُعذر أمم أوربا وأمريکا فی جهلها بهذا الأصل الکريم من أصول الإسلام ؛ لأنها لا تجدد من المسلمين من يبلغه إليها على حقيقة ، ولا تجد منهم من يفهمها حقيقة الحروب التي قامت فی عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبين لها أنها لم تكن لإكراه الناس على الإسلام ، وإنما كانت موجهة لمن أراد فتنة أهله في دينهم ، وصر فهم عنه بالقوة : فكانت للدفاع عن العتيدة ، ولم تكن لإكراه الناس على الإيمان بها ، لأنه لا إكراه في الدين ، كما قال تعالى فی الآية - ٢٦٥ -

من سورة البقرة : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميعٌ عليمٌ .

بل قد تجد أمم أوروبا وأمريكا من بعض المسلمين من يزعم لها أن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن هذه هي غايته التي يعمل لها ، فتزداد ضغنا وحقداً عليه ، وتحشى أمره إذا عادت إليه سطوته ، فتتفق كلمتها على حرب المسلمين ، وتقف حائلاً دون رجوع سطوتهم إليهم . وهي في عصرنا ذات قوة وبأس شديد . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف حقاً لما أهتمنا أن يكون هذا سبباً في تأليبها علينا ، ولكن الحقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وأن ضرر هذا لا يقتصر على جمع كلمة هذه الأمم على حربنا ، بل يتخذ عندها حجة على الإسلام ، لأنها تقدر حرية الرأي والعقيدة ، ولا تبيح استعمال القوة في الإيمان بعقيدة من العقائد ؛ وهذا هو الذي جاء به الإسلام قبلها ، لأن الإيمان عنده إذعان بالقلب ، فلا يكفي فيه الإقرار باللسان من غير هذا الإذعان .

وقد كانت قريش أول من دعى من العرب إلى الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بإسلامها أكثر من غيرها ، لأنها كانت صاحبة الزعامة الدينية في بلاد العرب ، فإذا صارت إلى الإسلام صار غيرها إليه تبعاً لها ، وقد أصرت على عنادها عشرين سنة ، حاربت فيها الإسلام أشد حرب ، وتولت زعامة القائلين بحربه من العرب ، حتى انتصر عليها في السنة الثامنة من الهجرة ، ففتح مكة في هذه السنة ، وكان قد سار إليها بجيش عظيم لم تقدر أن تقف أمامه ، فما إن دخل هذا الجيش مكة حتى بادروا أهلها إلى الإسلام ، وتركوا ما كانوا فيه من عبادة الأصنام .

وهنا يدخل في ظن كثير من الناس أن أهل مكة لم يسلموا إلا بقوة هذا الجيش ، وأنهم لو تركوا وأنفسهم لاستمروا على شركهم ، ولم يدخلوا في الإسلام دفعة واحدة كما دخلوا بعد ذلك الفتح . فإذا أردنا أن نفند هذا الظن وجب أن نرجع إلى الآيات التي أذن فيها للمسلمين بقتال قريش ، لأنها هي التي تبين لنا إن كان قتالهم لها من أجل إدخالها في الإسلام ، أو من أجل غاية أخرى غير هذه الغاية .

لقد أذن الله تعالى للمسلمين بقتال قريش في الآيتين — ٣٩ ، ٤٠ — من سورة الحج : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ مُّظْلَمُونَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَسْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . » وهاتان الآيتان صريحتان في أن الإذن بقتال قريش لم يكن لإدخالها في الإسلام ، وإنما كان لدفع ظللها عن المسلمين ، لأنها فتنتهم في دينهم ، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق ، وأذت من قعد به الضعف منهم فأقام بينها ، ولم يهاجر إلى المدينة .

فتوالت الحروب بين قريش والمسلمين بعد الإذن في القتال لهذا الغرض من الفريقين ، فقريش تريد أن ترجعهم بالقوة إلى دينها ، وأن تقضى على هذا الدين الذي آمنوا به عن طواعية واختيار ، وهم يريدون أن يدفعوا ظللها عنهم ، ليعيشوا أحرارا آمنين في دينهم ، ولم يدخل في غرضهم أن يكرهوها على الدخول في الإسلام ، كما دخل في غرضها أن تسكرهم على الرجوع عنه .

وقد استمرت هذه الحروب إلى أن كانت السنة الثامنة من الهجرة ، وكان بين قريش والمسلمين عقد صلح ، ففقتضته وحاربت حلفاء المسلمين من خزاعة ، فسار النبي صلى الله عليه وسلم إليها بعد نقض هذا العهد لا ليكرهها على الدخول في الإسلام ، بل ليظهر قبلة المسلمين من عبادة الأصنام ، ويجعلها بيتا خالصا لعبادة الله تعالى ، كما كانت في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وإن من أظهر الأدلة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد إكراه قريش على الإسلام أنه لم يجعله شرطا فيما أعطاه من الأمان لها ، بل دخل مكة من أعلاها وجيشه ينادى : من دخل داره وأغلق بابها فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ولم يذكر في ندائه « من أسلم فهو آمن » ، لأنه يريد إيمانا خالصا عن طوعية واختيار ، وليس فيه شائبة قهر وإكراه .

أمهات المشاكل الفلسفية

عند ابن رشد

لحاضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

تمهيد :

لا ريب أن بسط الحركة الفكرية في عصر من العصور يتطلب من الباحث عرض آرائه الشخصية في تاريخ الفلسفة عامة ، وفي الاتجاه التي سلكها أهل ذلك العصر خاصة . وكلما كان للبيئة المراد درسها اتصال وثيق بنفسه ، كان ذلك أدعى إلى حذره من سلطان العاطفة ، واحتياظه من فتنة الهوى ، لتصح مقاييسه ، وتعادل موازناته ، وتبرأ أحكامه من الخطأ بقدر المستطاع .

ولما كانت دراسة أهمية العصر ومزاياه ومظاهره الاجتماعية والسياسية ضرورة لا نزاع فيها لكشف خفايا المعضلات الفلسفية التي شغلت المفكرين في ذلك العصر من جانب ، ولما كان تاريخ الفلسفة من بعض وجوهه هو دراسة المحاولات التي قام بها الأفاضل من رجال الفكر في حل أهم المعضلات الكونية والجهود التي بذلوها في تلك السبل والمسلكات التي احتملوها من جرم إيمانهم بمبادئهم من جانب آخر ، فقد حق على كل من يتصدى لتاريخ الفكر أن يلم بهذه العوامل المؤثرة تأثيراً فعلياً مباشراً أو غير مباشر في تكوين هذا الفكر وفي تطورات ما مر به من مشكلات وحلول . ونحن على يقين من أن إلقاء الضوء على تعيين المشكلات الأساسية التي تعنى بها الفلسفة ، والطرائق التي تعرض بها تلك المشاكل على بسط البحث في العصور المختلفة ، والأسباب التي تحدد تلك الطرائق ، والمحاولات الفردية التي قام بها كل فيلسوف على حدة ، وما إلى ذلك من بواهر النتائج العقلية — لم يكن إلا ثمرة من ثمار الموازنة بين تلك العوامل .

على أن هذه العناية بالبيئة ومؤثراتها لا ينبغي أن تفوت علينا الاهتمام بالمواهب الشخصية للمفكرين ، وبكل الأحداث التي يمكن أن تشرح منتجاتهم ، وتوضح آراءهم ، وتبلى أسباب اتجاهاتهم من الناحية النفسية البحتة ؛ وكذلك لا ينبغي

أن نغفل المظاهر المتباينة التي اتخذتها المشكلات وما تعاقب عليها من تطورات منذ أقدم العصور التي عرضت فيها ، لأن مجموعة هذه المظاهر وتلك التطورات هي التي تولف من المشكلات كيائها المئين الذي هو منشأ مغالبتها أحداث الدهر ، ومآتى بقائها على الزمن .

كانت الفلسفة الإسلامية إبان النهضة العربية تسكون مع الفلسفة الإغريقية كلاً منسجماً بلغ اتساقه حد الائتلاف الذي صار من العسير معه فصل أحد الإنتاجين عن الآخر ، فحمل ذلك عدداً غير يسير من الباحثين القدماء والمحدثين على تقرير أن مفكرى الإسلام لا يزيدون على أنهم نقلة أو مقلدون . ولا جرم أن هذا يقتضى من المعنيين بدراسة الحركات الفكرية مضاعفة جهودهم لإمطاة اللثام عن هذه الحقيقة . وذلك لا يتيسر إلا بالوقوف على منتجات أولئك الأعلام دراسة وتحليلاً ، وموازنة واستنباطاً ، حتى يتيسر لهم تحديد المنزلة الحقيقية التي تشغلها كل طائفة من المنتجات بإزاء غيرها . وهذا هو الذى سنحاوله آملين أن نهتدى إلى كشف المكانة الدقيقة التي تسحقها الفلسفة الإسلامية بين صفوف الفلسفة العامة : فإذا فرغنا من هذه المهمة عدينا بالموازنة بين منتجات المشرق والمغرب من هذه الفلسفة ، ثم حددنا موضع كل منهما تجاه الأخرى .

يبد أنه لما كانت الفلسفة المغربية قد انتهلت من ينابيع الإغريقية الأصلية بطريقة مباشرة - إذا صح هذا التعبير - من جهة ، وسلكت في فهمها ذلك التراث وتوجيهها إياه وسائل أخرى غير التي سلكتها الفلسفة المشرقية من جهة ثانية ، وكانت في عمومها أو رتودوكسية أى أكثر ولائاً لأرسطو الحقيقى ، وأشد استمساكاً بأرائه الصحيحة من جهة ثالثة ، وكانت تظاھر بأنها تنعقب ذلك الإنتاج العربى لتقده أكثر مما تستفيد منه من جهة رابعة ، فقد دفعنا كل ذلك إلى أن نستجيب لما لدينا من العوامل الخاصة التي حملتنا على أن نغنى اليوم بدراسة أمهات المشاكل للفلسفة عند عين أعلام الفلسفة المغربية ، وهو ابن رشد . وإليك البيان :

(١) واجب الوجود ومعرفة بالنظر

لما كان الفلاسفة الذين تقدموا ابن رشد قد أجمعوا على أن الأداة الضرورية لمعرفة البارى ولفهم أسرار الكون - فضلاً عن الحكم عليها - هي المنطق

أو اقتصار العقل الذى تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ فى الفكر . فقد كان من الطبيعى أن يتابع هذا النهج فيقرر أن معرفة مبدع الكون عن طريق التقليد من خصائص العامة ، وأنها لا قيمة لها لدى تصفيرة الممازاة التى انقهرت السماء لتكون موطن الحكمة ، أو لتؤدى رسالة كشف الحجب الكونية عما وراءها من أنوار باهرة ، وأسرار ساحرة . ولا جرم أن هذا يقتضى طلب تلك المعرفة عن طريق النظر المحض ، وأن هذا النظر لا يتيسر إلا لمن درس أداته الضرورية وهى المنطق دراسة عميقة تؤهله لاستخدامه على خير وجه حتى تكون النتائج مستبظة من أقيسة يقينية لا يتطرق إليها الارتباب . وليس هذا فحسب ، بل إنه أراد أن يخلق على النظر الفلسفى أحد دعوات القماسة ، فجاء إلى محاولة إثبات أن الشرع قد أوجبه ، واستدل على دعواه هذه بذكر آيات من القرآن بحث الإنسان العاقل على التأمل فى ملكوت السموات والأرض ليستنبط وجود مبدعه من النظر ، فسموا بعقله عن الإيمان التقليدى الذى هو من شأن الجماهير . وهو فى هذا يقول :

« وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرتنا فى الموجودات بالقياس العقلى : وبين أن هذا النحو من النظر الذى دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس ، وهو المسمى برهاناً . وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان ، كان من الأفضل أو الأمر الضرورى لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولاً فيعلم أنواع البراهين وشروطها ، وبماذا يخالف القياس البرهان القياسى الجدلى والقياس الخطائى ، والقياس المغالطى ، وكان لا يمكن ذلك دون أن يتقدم فيعرف قبل ذلك ما هو القياس المطلق ، وكيف أنواعه ، وما منها قياس وما منها ليس بقياس . وذلك لا يمكن أيضاً ، أو يتقدم فيعرف قبل ذلك أجزاء القياس التى منها تتممت : أعنى المقدمات وأنواعها (١) . »

ومما يسترعى الانتباه ، بل مما هو جدير بالتقدير في هذا الموقف هو صعود
 فيلسوفنا بالباحث على درجات سلم المعرفة في أناة وتؤدة ، ومروره بوسائلها
 الضرورية مروراً طبيعياً ليس فيه قفز ولا وثوب ، فيبدأ بإرشاد الباحث بديا
 إلى التساؤل عن علم القياس هل سبق إليه الأولون أو لم يسبقوا ، فإن كانت
 الثانية وجب عليه أن يحاول ابتكاره لينصبه معياراً لبحوثنا . وإن كانت الأولى
 فقد لزمه التفتيش في كتب الأقدمين عن مبادئ ذلك العلم الهادى إلى الحق ، فإذا
 عثر عليها تأمل فيها حتى يصبح قادراً على الانتفاع بها في إمارة اللثام عن معميات
 الوجود ، دون أن تقف مخالفة أربابها له في العقيدة حجر عثرة في سبيل الاستفادة
 منها ، والاسترشاد بها . ولكن ليس معنى هذا التلذذ على الأقدمين أنه يكون
 عبداً لهم ، بل إن لديه أتم أنواع الحرية في قبول ما يتبين أنه الحق ، وفي رفض
 ما ينم عن زيف أو بطلان : وتلك هي أحدث وسائل البحث ، وبها يكون ابن رشد
 قد سبق الباحثين المعاصرين إلى المناهج الحديثة بأكثر من سبعة قرون ، وهذا
 الامتياز البديع هو الذى يحملنا على ذكر عبارته في هذا مع ما قد يبدو في ذلك
 من إطالة : واليك تلك العبارة :

« وإذا تقرر أنه يجب بالشرح النظر في القياس العقلي وأنواعه كما يجب النظر
 في القياس الفقهي ، فبيّن أنه إن كان لم يتقدم أحد ممن قبلنا بفحص عن القياس
 العقلي وأنواعه أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه ، وأن يستعين في ذلك
 المتأخر بالمقدم حتى تكمل المعرفة به ، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد
 من الناس من تلقائه وابتداءً على جميع ما يحتاج إليه من ذلك ، كما أنه عسير أن
 يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهي ؛ بل معرفة
 القياس العقلي أخرى بذلك وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك . فبيّن أنه يجب
 علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان
 ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التى تصح بها التزكية
 ليس يعزير في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك
 إذا كانت فيها شروط الصحة ، وأعنى بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء
 من القدماء قبل ملة الإسلام ؛ وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج إليه
 من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص ، فقد ينبغى

أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فإن كان كاه صواباً قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب فيها عليه (١) .

الآن وبعد أن فرغ ابن رشد من تقرير أن النظر هو الوسيلة المثلى لمعرفة الباري ، فقد أراد الترقى بالباحث الى مرتبة أسمى من التي انتهى منها ، وبجملها أن الشرع وسيلة الى الغاية العليا وهي الحكمة التي هي الحق والخير ، وأن الإيمان بغير هذه العقيدة ضرب من الجهل أو من الضلال ، وهو يشير الى هذا فيقول : « وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعلم العلم الحق والعمل الحق : والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه ، وبخاصة الشريعة منها ، ومعرفة السعادة الآخروية والشقاء الآخروى . والعمل الحق هو أمثال الأفعال التي تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء . والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملى (٢) » .

وإذا ، فقد بان من كل هذا أن الغاية التي ترمى إليها جميع الشرائع ، ويرنو إليها العقل البشرى في شوق وشغف ، ويهدف إليها الفلاسفة من بحوثهم المستفيضة ، ومجهوداتهم المتواصلة هي غاية واحدة ، وهي معرفة السر الاسمى لهذا الوجود وما انبثق عنه من أسرار ثانوية . ولما كانت الأدلة التي أسلفها الحكماء من الإغريق وفلاسفة الإسلام الشرقيين قد اشتملت على القدر الكافى لإثبات وجوب وجود الباري ووحدانيته وكلمه وسموه عن الند والشبه والتقسيم والتألف والحيثيات والزمان والمكان ، والكيف والانحصار . واتشخص والتحدد ، وما الى ذلك مما يتنافى مع مقام الألوهية الحقبة التي تقتضى أرفع مراتب التنزيه : ولما كانت أدلة ابن رشد على هذا كاه لا تكاد تعدو ما أتى به أولئك الأعلام فى هذا الصدد ، فقد اعتبرناها غير مبنكرة . ولهذا رأينا الإغضاء عنها هنا اكتفاء بما سبقها من منتجات أسلافه ، وركزنا اهتمامنا فيما بدا فيه تجديد ابن رشد ناصعاً جلياً ، وموعدنا المقال الآتى .

(١) راجع صفحتى ٤ و ٥ من كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » لابن رشد .

(٢) ارجع الى صفحتى ١٨ و ١٩ من المرجع السابق .

هل بعث الرسول الى الجن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين
المدرس في الأزهر

المستفيض على السنة العلية في كتب الشريعة الإسلامية أن الله تعالى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجن كما بعثه إلى الإنس . وهناك روايتان مشهورتان في هذا الموضوع : رواية « ابن مسعود » ، ورواية « ابن عباس » . سأذكرهما ، ونذكر أقوال العلماء فيهما ، بعد أن نبين أن بعض الفرق أنكر وجود الجن إطلاقا ، وأن العلماء حكموا عليهم بالكفر ، ونبين آراء الذين أثبتوا وجود الجن من ناحية أنهم أجسام ، أو حالون في الأجسام ، أو أنهم قوى خفية ، إلى غير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، فنقول :

أنكر بعض الفلاسفة والمعتزلة ، والقدرية ، وبعض أهل الكتاب ، وجود الجن إطلاقا . وهؤلاء لا يشملهم بحثنا ، لأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن إنما تكون حيث يوجد الجن ولا وجود لهم في نظر هؤلاء . وقد حكم العلماء على هذه الطوائف التي أنكرت وجود الجن بالكفر ، لمصادمة آرائهم صريح القرآن الكريم : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشاد فآمنّا به ولن نشتك من أحد ، إلى آخر سورة الجن . وقوله تعالى في سورة الاحقاف : « وإذ صرّفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم مُنذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله ، إلى آخر الآيات الواردة في الجن في هذه السورة الكريمة ، وقوله تعالى في سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صلال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تثبت وجود الجن صراحة .

والمصادمة آرائهم أيضا ما وقع عليه إجماع طوائف المسلمين ، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون ، مما يكاد يكون معلوما من الدين بالضرورة .

ولما عرّف الشيخ الرئيس ابن سينا ، الجن ، في رسالته التي ألفها في حدود الأشياء بأنه : حيوان هوائي ، تتشكل بأشكال مختلفة ، وقال : هذا شرح للاسم ، فهم العلماء أن ابن سينا ينكر حقيقة الجن ، وأنها ليس لها وجود في الخارج ، إذ لو كان لما عدل عن تعريفها إلى شرح اللفظ . وعندى أنه استنتاج من العلماء ، فإن الرئيس لم يصرح بنفي الحقيقة والماهية ، وإنما اكتفى بشرح الاسم ، وهذا لا يعنى حتما اعتقاده نفي الوجود الخارجى ، ولم لا يجوز أن يكون سلك هذا السبيل لعدم معرفته ذاتيات الجن ؟ ومعلوم أن تعريف شئ بحقيقته وماهيته فرع العلم بذاتيات الماهية .

ولا شك عندى أن الصيرورة إلى هذا أفضل من أن نحشر ابن سينا في زمرة المنكرين المحكوم عليهم بالكفر .

هذا وقد أثبت وجود الجن طوائف المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، وتواتر ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وعن التابعين وعلماء أهل الكتاب وأتباع الرسل السابقين ، ومشركى العرب وغيرهم ، مما صار مشهوراً مستفيضاً متواتراً .

وافترق المثبتون إلى فرقتين : فرقة ترى أنها ليست أجساما ولا حالة فى الأجسام ، وإنما هى جواهر قائمة بأنفسها كالأرواح ، إلا أن أنواعها مختلفة بالماهية : فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها كريمة محبة للخير ، وبعضها دنيئة محبة للشرور والآفات . وأصحاب هذا رأى لا يجدون مانعا من أنها تتعلق وتتصل ببعض أجسام هذا العالم — البشر — ما دامت كالأرواح .

وفرقة ترى أنها أجسام خفية عاقلة تغلب عليها النارية ، كما يشهد له قوله تعالى : **وَنَخْلُقُ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ** ، وهى قابلة للتشكل بأشكال مختلفة ترى بغير صورها الأصلية ، ولا يراها بصورها الأصلية إلا الأنبياء عليهم السلام . وخواص الخواص من المؤمنين .

وأصحاب هذا رأى انقسموا إلى فرقتين : إحداهما تقول : إن هذه الأجسام مشتركة فى كونها حاصلة فى الحيز والمكان والجهة ، وموصوفة بالطول

والعرض والعمق ، ومختلفة في ماهيتها ؛ لأن الاشتراك في الصفات لا يقتضى الاشتراك في تمام الماهية . وثانيتهما تقول : إنها مشتركة في الصفات ، ومتساوية في تمام الماهية .

وقد توجه إلى أصحاب هذا المذهب (مذهب المجتمة) ، وإلى أصحاب المذهب الأول (مذهب القوى الخفية) ، اعتراضات كثيرة وجدل عنيف ، ومناقشات حادة قاهراً بدفعها والردود عليها ، ولو نقلناها هنا لطل بئالمقام .

والذى يعنينا فى هذا البحث هو أن الجن موجود ، سواء كان ' قوى ، أو أجساماً : فإن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم تنوقف على وجودهم كما أسلفنا .

وهناك فى هذا الموضوع مذهبان مشهوران : مذهب ابن عباس ، ومذهب ابن مسعود .

مذهب ابن عباس :

يلخص فى آى النبى صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى الجن . ولم يأمره الله بتبليغهم . وإنما استمع الجن للقرآن الكريم صدقة واتفاقاً فآمنوا به ، وكان استماعهم له أثناء مرورهم بأحية عكاظ للبحث عن السبب الذى منعهم من استراق السمع من السماء : وذلك أن الجن والشياطين كانوا — فى المدة الواقعة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام — يسترقون السمع ويخطفون الخطفة من ملائكة السماء ويلفونها للكفة ، فتضيف الكفة على الكلمة الصادقة مائة كذبة ، كما ورد فى صحيح البخارى : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، رُميت بالشهب ، ومُنعت من استراق السمع : وذلك ما حكاه الله عنهم فى سورة الجن ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأتاكنا نقُعد منها مقاعد السَّمْع ، فَمَنْ يَسْمَعُ الآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَاباً رَصِداً . وأنا لا ندرى أَهَرَأْرِيدُ يَمِنُ فى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشِداً . فالتفوا حول إبليس وشكوا له منهم من أمر السماء ، ففرقهم طوائف وأمرهم أن يطفوا حول الأرض كلها للبحث عن هذا الحدث العظيم ؛ فاتفق أن مرّت طائفة منهم جهة عكاظ ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلى الصبح بأصحابه ويحمر

بالقراءة ، فاستمع له الجن وقالوا : هذا والله هو الذى منعنا من أمر السماء ! ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، دون أن يعلم الرسول من أمرهم شيئاً حتى أخبره الله بقوله : قل أوحى . الخ .

وإليك نص رواية البخارى عن ابن عباس : قال البخارى فى باب تفسير سورة قل أوحى : حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قال : ما حال بكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ؟ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن سمعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بكم وبين خبر السماء . فهالك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : يا قوم ما لنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم . قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، وإنما أوحى إليه قول الجن اه . هذه رواية البخارى بنصها عن ابن عباس . وقد رواها غيره بزيادات . وسند ذكر أقوال العلماء فى مذهب ابن عباس بعد أن تبين مذهب ابن مسعود .

مذهب ابن مسعود :

هو صريح فى أن الله تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ الجن ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الجن كما هو رسول إلى الانس ، وأن الجن مكفون بأصول الشريعة وفروعها كالانس سواء . فقد جاء فى رواية عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أتلو القرآن على الجن » . وفى رواية أخرى عنه « أرسلت إلى الجن » . وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن .

واسمع رواية ابن مسعود بنصها : قال ابن مسعود : قال عليه الصلاة والسلام :
 « أمرت أن أتلو القرآن على الجن ، فمن يذهب معي ، ؟ فسكتوا ، ثم قال الثانية
 فسكتوا ، ثم قال الثالثة ، فقال عبد الله : قلت : أنا أذهب معك يا رسول الله .
 قال : فانطلق حتى إذا جاء الحُجُجُون عند شعب أبي دب ، خطب عليّ خطباً فقال :
 لا تجاوزوه . ثم مضى الى الحجون ، فالتحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزُّط
 يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه ، فغاب عن بصرى ،
 فقامت ، فأومأ الى بيده أن اجلس : ثم تلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ،
 ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم ، فلما عاد الى قال : أردت
 أن تأتيني ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما كان ذلك لك : هؤلاء الجن أتوا
 يستمعون القرآن ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين اه .

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
 قال : أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن : قال : وانطلق بنا
 وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وفي شرح البيهقي من طرق شتى عن ابن مسعود
 أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى أتينا مكان
 كذا . وفي آخر هذه الرواية ما نصه : فقلت : أين كنت يا رسول الله ؟ فقال :
 « أرسلت الى الجن ، فقلت : ماهذه الأصوات التي سمعت ؟ قال : هي أصواتهم حين
 ودعوني وسلبوا عليّ اه .

من هذه الروايات يتبين لك منها أيها القارئ الكريم ، أن الله تعالى أرسل
 محمداً صلى الله عليه وسلم الى الجن كما أرسله الى الإنس ، وأنه أمره بأن يتلو
 عليهم القرآن ، وأن بعض الجن مؤمن وبعضهم كافر ، مثلهم في ذلك مثل الإنس .
 انظر الى قول الله تعالى حكاية عنهم في سورة الجن : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا
 به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ،
 فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . » وتثبت
 آيات الاحقاف بأن من الجن دعاة الى هداية قومهم . انظر الى قوله تعالى :
 « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى
 الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم

وَيُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وبعد ، فاعلم أيها القارى الكريم أن الذى عليه الممول لدى العلماء إنما هو مذهب ابن مسعود الموافق لصريح القرآن الكريم ، وأن مذهب ابن عباس لا يتنافى مع مذهب ابن مسعود . فإن ما ذكره ابن عباس وقع أولا ، فأوحى الله تعالى الى الرسول « قل أوحى إلى » . ثم أمر بعد ذلك بالخروج إليهم . وقد قال العلماء : إن واقعة الجن تكررت ست مرات ، وإن الواقعة التى رواها ابن عباس كانت أول الواقعات ، فإنها كانت قبل الهجرة بثلاث سنين .

ونسئى ابن عباس بعث الرسول إلى الجن ليس على إطلاقه ، وإنما هو خاص بهذه الواقعة الأولى فقط . وحاشا ابن عباس أن يخالف صريح القرآن . ومضى أمكن الجمع بين الروايات وجب الجمع . كما أسلفنا .

ويقول العلامة ابن تيمية : إن ابن عباس علم ما حكاه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود . فإن الواقعة الأولى التى رواها ابن عباس وقعت فى وقت كان ابن عباس فيه شابا حداثا ، لأنه لم يباهز الحلم إلا فى حجة الوداع . ومهما يكن من شيء فالواقعة تكررت . وهذا هو سبيل الجمع بين الروايات .

وقبل أن أختم هذا المقال أود أن ألفت النظر إلى ما فى قول الله تعالى : « قل أوحى إلى » الآية من أسرار - ففيها :

(١) أن الصحابة عرفوا أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن كما بعث إلى الإنس .

(٢) توبيخ قريش بأن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فأمنوا به ولم يعاندوا كما عاندت قريش .

(٣) أن يعلم القوم أن الجن مسكفون كالإنس .

(٤) أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(٥) أن فيهم مرشدين يدعون أقوامهم إلى التوحيد . وفى آيات الاحقاف

ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الجن وكلمهم ودعاهم إلى الإسلام وجعل منهم رسلا إلى أقوامهم .

وقتنا الله جميعا إلى ما فيه الرشاد .

نظرية الارتكاب بالترك

في الشريعة الإسلامية وفي القانون المقارن

لحضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد إبراهيم

من وكلاء النيابة العمومية

يتنا فيما تقدم معنى نظرية الارتكاب بالترك والآراء المختلفة في حكمها ، ويجدر بنا قبل أن نبين حكم هذه النظرية في الشريعة الغراء ، أن نذكر أن الحكم التكليفي الذي قد يوجب العقاب إما أمر وإما نهى . فعدم طاعة الأمر هو الجريمة السلبية ، وارتكاب ما نهى عنه هو الجريمة الإيجابية : وقد عبر عن ذلك مؤلف كتاب مبادئ الأحكام بقوله : « والعقوبة تكون على فعل محرم ، أو ترك واجب أو سنة أو فعل مكروه »^(١) . ومثال الجريمة الإيجابية في الشريعة : القتل والسرقة والزنا وقطع الطريق . ومثال الجريمة السلبية : امتناع المدين المورس عن سداد دينه ، وعدم إقامة المسلم الصلاة ، وامتناعه عن إيتاء الزكاة .

ولما كانت الأمثلة التي ذكرها فقهاء الشريعة ، فيما يسمى بنظرية الارتكاب بالترك ، قد وردت عند كلامهم على جريمة القتل ، فيحسن أن نوضح ماهية الوسيلة القاتلة في المذاهب المختلفة ، لأنها محل خلاف بينهم : وليس الارتكاب بالترك إلا وسيلة من وسائل القتل .

يرى الامام أبو حنيفة أن الآلة المستعملة في القتل يجب أن تكون محددة ، أي مفرقة للأجزاء : فإن لم تكن كذلك فلا يعتبر القتل عمداً . واعتبر الصحبان الآلة قاتلة إذا كانت لا تلبث ، أي لا تحتملها النفس .

ويرى الشافعي وأحمد أن أي وسيلة قاتلة تجمل القتل عمداً ، ولو لم تكن محددة . ومذهب مالك أن القتل يعتبر عمداً متى كانت الآلة قاتلة ، سواء كان الاعتداء على سبيل القتل أو اللعب . أما إذا كانت الآلة غير قاتلة فيعتبر القتل خطأً إن كان الاعتداء على وجه اللعب أو التأديب : فإن كان عداوة فالقتل عمداً .

وعند أهل الظاهر يعتبر القتل عمدا إذا كان نتيجة اعتداء يمتد من مثله ، أو لا يمتد من مثله . أما ما لا يموت من مثله أحد أصلا فليس عمدا ولا خطأ ، ولا شيء فيه إلا الأدب ^(١) .

وفيما يلي بعض أمثلة الارتكاب بالترك التي ذكرها الفقهاء وبيان حكمها :
إذا حبس المجنى عليه في مكان ومنع عنه الطعام والشراب مدة لا يبقى فيها حتى يموت ، فعلى الحابس القود عند أحمد والشافعي ومالك . لأن الحبس مع منع الطعام والشراب يقتل غالبا ؛ وترتب القتل على ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والظروف ؛ فإذا كان الشخص عطشا في شدة الحر مثلا ، مات في الزمن القليل ^(٢) . والحكم كذلك إذا منعه الدفء وكان البرد يقتل غالبا ^(٣) .

وفي مذهب مالك ذكر ابن يونس عن بعض القرويين ، أن من منع فضل مائه مسافرا عالما بأنه لا يحل له منعه ، وأنه يموت إن لم يسقه ، قتل به . وإن لم يل قتله يديه . وظاهر ذلك أنه يقتل به سواء قصد بمنعه قتله أو تعذيبه ^(٤) . وعنده أيضا - حيث يقتل الأصل بفرعه خلافا لجمهور الفقهاء - نص على أنه إذا منعت الأم ولدها الرضاع حتى مات ، تمثل إن قصدت قتله ^(٥) . وفي مذهبه أيضا أنه إذا أمر شخص آخر بقتل ثالث ، فيقتص من المباشر دون الأمر إلا إذا كان حاضرا فيقتل أيضا لقدرته على خلاصه ^(٦) .

وجاء في الفتاوى الكبرى (في مذهب الشافعي) أنه إذا حضر نساء ولادة ذكر ، فقطعت إحداهن سرته من غير ربط ، ونهاها الباقيات ، فمات بعد القطع بتليل ؛ فإن كان يقتل غالبا فيجب القود عليها . ولو قيل بوجوب القود على الجميع إذا لم يرين الربط ، لم يبعد ؛ لأن المهلك ترك الربط . ولأن البرء مؤثوق به

(١) راجع مؤلفنا « القصاص » ص ٤١ وما بعدها والمراجع للشار إليها .

(٢) الترح الكبير - ٩ ص ٣٢٨ . المذهب - ٢ ص ١٨٨ .

(٣) كشف القناع - ٣ ص ٣٣٦ . شرح المنهاج - ٣ ص ٣٦٧ .

(٤) حاشية المسوق - ٤ ص ٢٨٥ . حاشية العاوي - ٢ ص ٢٤٦ .

(٥) شرح الدردير الكبير - ٤ ص ٢٨٥ .

(٦) شرح الخرنج - ٨ ص ١٢ .

لوربط في العادة المطردة ، فالهلاك ينسب إليهن كلهن فيلزمهن القود ،
والإفدية العمد (١) .

وعند الأحناف : لا قود أصلا في الارتكاب بالترك (٢) .

واعمل أكبر أنصار الارتكاب بالترك ، ودافعيه إلى أبعد حدوده ، هو أبو محمد
ابن حزم . وتنقل هنا كلامه بحروفه :

٢٠٩٧ - مسألة : من استسقى قوما فلم يسقوه حتى مات . .

وقال علي : رويانا من طريق أبي بكر بن أبي شيبة أخبرنا حفص بن غياث عن
الأشعث عن الحسن ، أن رجلا استسقى على باب قوم فأبوا أن يسقوه ، فأدركه
العطش : فضمتهم عمر بن الخطاب دية .

وقال أبو محمد : القول في هذا عندنا ، وبالله تعالى التوفيق ، هو أن الذين لم
يسقوه إن كانوا يعلمون أنه لا ماء له البتة إلا عندهم ولا يمكنه إدراكه أصلا حتى
يموت ، فهم قتلوه عمدا وعليهم القود بأن يمسعوا الماء حتى يموتوا ، كثروا أم قلوا .
ولا يدخل في ذلك من لم يعلم بأمره منهم ، ولا من لم يمكنه أن يسقيه .
فإن كانوا لا يعلمون ذلك ولا يتدبرون أنه سيذوق الماء ، فهم قتلة خطأ ، وعليهم
الكفارة ، وعلى عواقبهم الدية ولا بد . برهان ذلك قول الله تعالى ، فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، وقال تعالى ، والحرمات قصاص . .
ويبين يدرى كل مسلم في العالم أن من استسقاها مسلم وهو قادر على أن يسقيه
فتعمد ألا يسقيه إلى أن مات عطشا ، فإنه قد اعتدى عليه بلا خلاف من أحد
من الأمة . وإذا اعتدى فواجب بهن القرآن أن يمتدى على المعتدى بمثل
ما اعتدى به ، فصح قولنا يبين لا إشكال فيه . وأما إذا لم يعلم بذلك فقد قتله ،
إذ منعه ما لا حياة له إلا به ، فهو قاتل خطأ ، فعليه ما على قاتل الخطأ .

وقال أبو محمد : وهكذا القول في الجائع والعاري ولا فرق ، وكل ذلك
عدوان . وليس هذا كمن اتبعه سبع فلم يؤووه حتى أكله السبع : لأن السبع
هو القاتل له ، ولم يمت من جنايتهم ولا مما تولد من جنايتهم . ولكن لو تركوه

(١) الفتاوى الكبرى ج ٤ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن عابدين ج ٥ ص ٥٣٦ .

فأخذ السبع وهم قادرون على إنقاذه فهم قتلة عمر ، إذ لم يمت إلا من فعلهم : وهذا كمن أدخلوه في بيت ومنعوه حتى مات ، ولا فرق ^(١) .

وهكذا نرى فقهاء الشريعة الغراء قد سبقوا العالم في الكلام عن الارتكاب بالترك ، وإن لم يعرفوا هذا الاسم . وظاهر أنهم قالوا بالنظريات الحديثة المختلفة : فلا يعتبر القتل بهذه الوسيلة موجبا للقصاص في مذهب أبي حنيفة . وأجاز البعض القصاص متى كان على الإنسان واجب قانوني كحالة الأم التي تمنع عن إرضاع ابنها ، أو كان عليه واجب أوجب به فعل نفسه كحالة من يحبس آخر ويمنع عنه الطعام والشراب . بل وقال البعض بالقصاص ولو كان على المرء واجب تلمية الإنسانية ، كامتناع شخص عن إعطاء من هو على وشك الموت جوعا فضل طعامه . وعلة هذا التوسع الأخير ترجع إلى أن الشريعة الغراء توجب على الناس أن يتعاونوا ، وأن يساعد كل واحد منهم أخاه قدر طاقته ، وإلا كان آثما . وإن مجتمعاً يقوم على هذه الأسس فهو خير مجتمع يمكن أن تراه البشرية .

ونحن نرى ضرورة العقاب في حالة الارتكاب بالترك ، ولو لم يكن على الممتنع إلا واجب تلمية الإنسانية وتفضيه المروءة ، إذا كان قيامه بهذا الواجب لا يعود عليه منه ضرر يذكر ، فلم لا يعد قاتلا ذلك الذي يرى شخصا على وشك الغرق ويمتنع عن إلقاء حلقة النجاة التي في يده للغريق قاصدا غرقه : أو ذلك الذي يمتنع عن إعطاء شخص على وشك الموت من انظما جرعة من الماء ؟ فمثل هذه النفوس التي تضرب بتقديم مساعدة لا يعود عليها منها ضرر يذكر ، ويترتب عليها قتل نفس حية ، يجب أن يعدها القانون خطرة ، وأن يعاقب صاحبها .

فالشريعة الغراء توجب التكافل والتعاون بين الناس . ولا أدل على ذلك

(١) المحلى ١٠ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ - ونس في مذهب أحمد في باب الدية على أنه لا ضمان على من رأى إنسانا في مهلكة فلم ينجها منها مع قدرته على ذلك ، وقد أساء ، لأنه لم يملكه ولم يكن سببا في هلاكه (للنبي ٩ ص ٥٨١) وظاهر من هذا التعليل أنه يوافق ما تقول به النظرية الرئيسية من أن الواجب السببي هو الامتناع والنتيجة .

مما نص عليه الفقهاء من أنه إذا نزلت بشخص مخصة ووجد مع رجل طعاما ، فامتنع عن إطعامه ومن مساومته ، فإن له أن يقتله ، ولا شيء عليه إن قتله (١) .

وقد حكى أبو يوسف رحمه الله تعالى ، في كتاب الخراج ، أن قوما وردوا ماء فسألوا أهله أن يدلوهم على البئر فلم يدلوهم عليها ؛ فقالوا : إن أعناقنا وأعناق مطايانا قد كادت تنقطع من العطش ، فدلونا على البئر وأعطينا دلوا نستقي بها ؛ فلم يفعلوا . فذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : فبلا وضعتم فيه السلاح (٢) !

أما إذا كان على الممتنع واجب يلزمه به القانون كحالة رجل الشرطة المكلف بحفظ الأمن ، أو يلزمه به الاتفاق كحالة من يتعاقد على قيادة كفيف . أو أوجبه على نفسه بفعله كحالة من يحبس شخصا ويمنع عنه الطعام ؛ فيرى عقاب الممتنع ، ولو كان قيامه بالمساعدة يترتب عليه ضرر جسيم ، لأنه يحكم وجوده في هذا المركز التناوبي أو التعاقدى أو الواقعى بعد قابلا لحمل كل النتائج التى تترتب على عدم قيامه بواجبه . وعلى هذا فإذا أدى الامتناع الى القتل ، وكان الممتنع قاصدا للقتل ، فإنه يعاقب بعقوبة القاتل عمدا ؛ أما إذا لم يقصد قتلا فيعد قاتلا خطأ .

وفضلا عما تقدم فيجب أن تكون هناك بين الامتناع والجريمة رابطة السببية ، وقد سبق أن ذكرنا أن العلماء فى فرنسا يستندون الى القول بانفساء رابطة السببية تأييدا لرأيهم فى القول بعدم العقاب على الارتكاب بالترك . والواقع أن المسألة دقيقة ، وتزداد دقة إذا تدخلت إرادة أخرى فى إحداث النتيجة التى حدثت . بأن ارتكبت الفعل المسادى للجريمة ؛ كحالة من يرى شخصا يهيم بقتل آخر فيتركه يتم جريمته رغبة منه فى موت المجنى عليه .

واضح من هذا المثال أن القتل تم نتيجة لإطلاق العيار الناري مثلا ، والسببية بين هذا الفعل وبين النتيجة سببية مباشرة ، فى حين أن الصلة بين الامتناع عن المساعدة والقتل غير ظاهرة تماما ؛ ولكن المعيار الذى نرى الأخذ به لتحديد

(١) معين الحكم ص ٤٢ - تفسير القرطبي ص ٢٠ - ٢٢٥ (٢) راجع كتاب

المعاملات الشرعية لاساذنا المرحوم احمد بك ابراهيم ص ٢١ وما بعدها .

الحالات التي يعاقب فيها الممتنع والتي لا يعاقب فيها ، يحملنا تقرير وجود علاقة سببية بين الامتناع وبين النتيجة التي حدثت ، وهذا المعيار هو أن الممتنع لا يعاقب إلا إذا كان قادرا على منع الجريمة ، ولو حاول منعها ما حدثت . أما إذا لم يكن في قدرته أن يمنعها فلا يعاقب على امتناعه . فمن يرى شخصا على وشك الفرق ويسر لموته ، لا يمكن أن يعتبر قاتلا عمدا إذا تبين أنه لا يحسن السباحة ، وأنه لم يكن في وسعه أن ينقذه بطريقة أخرى . مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره قاتلا بالامتناع لأنه لم يمتنع في الحقيقة عن شيء ، وبذا لا تكون هناك علاقة بين امتناعه وبين الفرق . وكذلك من رأى شخصا يريد قتل آخر فلم يمنعه ، ولو تدخل لما كان لتدخله أثر على تمام الجريمة ، مثل هذا أيضا لا يعتبر قاتلا : لأن تدخله وعدم تدخله يستويان في النتيجة : أما إذا كان تدخله كفيلا بمنع ارتكاب الجريمة ، وامتنع عن التدخل فاصدا حصول هذه النتيجة ، فصلة السببية موجودة ، على ما سبق أن أوضحنا عند مناقشة النظرية الفرنسية .

ونرى أن هذه القاعدة لا تسرى إلا على الجرائم التي يمكن أن يتعدد مرتكبوها . ذلك أن هناك جرائم لا تقبل بطبيعتها أن يتعدد مرتكبوها ، فإذا ارتكبت جريمة من هذا النوع ، فلا يمكن أن تنسب إلا إلى من ارتكبها وإليه وحده . ومن الأمثلة على ذلك جريمة الزنا وشرب الخمر : فالزنا هو الوطء في غير حلال ، ولا توجد الجريمة التامة إلا بالوطء ، والوطء لا يمكن حصوله في محل واحد وفي وقت واحد إلا من شخص واحد ، فمن غير المصور أن يزني شخصان بامرأه واحدة في وقت واحد . وكذلك لا يعد شاربا للخمر إلا من يشربها فعلا : لأن الجريمة لا توجد إلا بدخول الخمر الفم ، ومن المستحيل أن يشرب شخصان جرعة واحدة من الخمر في وقت واحد . وعلى عكس ذلك نجد أن تعدد الجناة أمر عادي في جريمة القتل : فقد يطعن أكثر من شخص المجنى عليه في وقت واحد فيقتلونه .

وعلى ذلك فإذا امتنع شخص عن منع ارتكاب جريمة لا تقبل بطبيعتها تعدد الجناة ، فإنه لا يعد مرتكبا لها ؛ وذلك لاستحالة ارتكاب شخصين لها في وقت واحد . ويجب أن يوضع نص قانوني خاص يحدد العقاب في هذه الحالة .

لغويات

التقاوى

تطلق كلمة "التقاوى" في لسان عامة المصريين على البذور تبذر للزراع . ولا تراهم ينطقون لها بواحد ، فاسمعنا لها منهم مفردا . وقد حرصت منذ دهر على أن أقف على حقيقة هذه الكلمة ومأناها اللغوية . فلم يرد لي فيما وقفت عليه من المعاجم شئ يشفي الغلة وينقع الصدى . ففي المعاجم أن التقاوى مصدر تقاوى الشريك إذا تزايد في الشراك بينهما . وذلك أن يكون بين الرجلين دار مثلا فيقومهما ، ليشتري أحدهما نصيب الآخر . ومناسبة هذا لما عرف في هذه الأيام لا تكاد تبين . وقد وقفت إلى أن أهتدي إلى أصلها إن شاء الله . فقد جرى عرضا في بعض حديث أساتذنا الحجة الثقة الشيخ إبراهيم حمروش ذكر التقاوى . فذكر . - حفظه الله - أن هذا الاستعمال يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية الحاكمة في مصر : محمد علي الكبير . ذلك أنه كان يعطي الفلاحون من أهراء السلطان ومخازن الولاية ما يعينهم على الزرع من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب في كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردبا . تقوية له . فلما كثر قرن عطاء البذر بالتقوية وكان بينهما هذا التحالف ، غلبت التقوية على البذر وعرفت فيه . فكان إذا قيل : أخذت التقوية فإنما يعنى أخذ البذر : وجمع التقوية على التقاوى ، وغلب هذا اللفظ ، التقاوى ، على البذور ما قل منها وما كثر .

دأب المصريين الدفاع عن الوطن . ضد كل اعتداء

يكثر استعمال "ضد" هكذا . وكأن المستعمليه يخالونه ظرفا : فهم يلزمونه النصب . ولا يدعون به يتغير عن هذه الصيغة ، كما يفعل بالظروف والأدوات .

وترى في الرسالة (العدد ٦٢٣) : « هذه التمرّدات الجارحات ، التي أرسلها لورنس من طريق قصصه ، أثارت ثائرة التمسّاد عليه ، وأحفظتهم ضده . » والمعروف في اللغة أن الضدّ من الأوصاف : تقول : هو ضداً لـ . وهما ضدان ، وهما أضداد . وفي مزدوجة أبي العتاهية :

لكل إنسان طبيعتان : خير ، وشر : وهما ضدان

وتقول : أتيت بضدّ ما تفعل : ولهم في هذا فعل : يقولون : أضدّ الرجل : وفي أفعال ابن القوطيّة : أضدّدت : أتيت بالضد ، وهو خلاف الشيء . . . ويبدو لي أن المحدثين أتوا في استعمالهم الضد على غير وجهه من قبل الترجمة للأساليب الفرنجية . فقد جعلوا كلمة ضد ترجمة لكلمة كُنْترَ contre الفرنسية . وهذه الكلمة في الفرنسية ليست من الأوصاف ، بل هي من أدوات انوصل والربط : ولذا فهي عندهم من الكلمات التي لا يدخلها التصريف والتغيير : وهم يقولون : يتكلمون خلاف ما يفكرون Ceaespensées its par lent contre فتبعم كتابنا فقالوا : يتكلمون ضد ما يفكرون . وقد علمت أن هذه الترجمة ليست دقيقة وفق الصواب ، فليس من الدقة أن تضع الوصف موضع الأداة ، وتعطى أحدهما حكم الآخر ، فذلك جمع بين الضب والنون . وقد يخطر للباحث في هذا الأسلوب أن يخرج على أن « ضد ، حال : فإذا قلت : تشنّ الدولة الحرب ضد الأعداء الثلاثة : الجهل والمرض والفقر ، فالمعنى تشنّ الدولة الحرب في حال أنها ضد هذه الأعداء . ولكن مثل هذا لا يقصده مستعملو هذا الأسلوب ، وإنما يريدون أن الدولة تشنّ الحرب على هذه الأعداء ، فيضدّ في منزلة حرف الجرّ أو حرف الوصل والربط . وقد تقول : تحارب دولة ضدّ دولة ، وهنا لا تستقيم الحالية : إذ أن دولة من النكرات ، ولا يأتي منها الحال في مطّرد أمرها ، وقياس مثلها . ولعل الكتاب بعد هذا يعدلون عن هذا الأسلوب السقيم .

بقي معي حوالى مائة درهم

ترى هذا الأسلوب كثيراً في كتابات المحرّرين . وفي صحيفة « المصرى » ،
في يوم ١ / ١١ / ١٩٤٧ : « فما بالك إذا أقحم عليهم حوالى مليون صهيونى ! » .
والكلمة « حوالى » ، لا مكان لها في هذا المقام . ويجب أن يستبدل بها زهاء
أو نحو ، أو غير ذلك مما يجرى في هذا المعنى . تقول : عندي زهاء مائة من الدراهم ،
ونحو مائتين من الرجال . وذلك أن حوالى إنما يقع ظرفاً مكانياً . تقول : قعدوا
حوالى محمد وحواله ، وحواليه ، وحواله ، وأحواله ، ولا يراد في هذا حقيقة التثنية
والجمع . وإني أسوق إليك بعض النصوص في هذا : لتقتنع بما أقول ، وتعطى
يدك بما أذكر . جاء في المصباح : « وقعدنا حوله » ، بنصب اللام على الظرف ، أى
في الجهات المحيطة به ، وحواليه بمعنى « » . وفي اللسان : « قال الأزهرى : رأيت
الناس حواله ، وحواليه ، وحواله ، وحواليه » . وقال الصّبّان في حاشيته على
الاشموني : « ومن غير المتصرف حوال ، وحوالى ، وحوالى ، وأحوال ، وهو
يريد بغير المتصرف ما لا يخرج من النصب على الظرفية إلا إلى الجرّ بمن ، وفيه معنى
الظرف في جميع أحواله . ومن شواهد استعمال حوالى في وجهها الصحيح ما جاء
في دعاء الاستسقاء : اللهم حوالينا ولا علينا . أى أنزل الغيث حوالينا : في مواضع
النبات ، لا في مواضع الأبنية : وذلك من قولهم : رأيت الناس حواليه ، أى مطيفين
به ، محذوقين . ومن شواهد ذلك قول الفرزدق :

لعلك يوماً أن ترينى ، كأنما بنى حوالى الأسود الحوارد^(١)

ملط

ترى هذه الكلمة في لسان العامة . وهم يستعملونها في الوصف بالغرّى
والتجرد . يقولون : فلان عارى ملط . ويوردونها في موارد المجاز ، فيقولون :

(١) الحوارد : الغضاب ، واحدها حارد .

فلان فلتس وأصبح ملط . وقد كان من هم الأستاذ حسن توفيق العدل - عليه رحمة الله - أن يخرج هذه الكلمة ويردّها إلى أصل عربي . فكان أن اهتدى إلى أن أصلها مرط ، وذلك من قولهم : سهم أمرط ، ومريط ومُرط : لاريش عليه . وعلى هذا فقد كان من العامة أن أبدلوا من الراء لاما ، وهذا ليس غريباً في اللغة ، فهذان الحرفان يتعاقبان ، كقولهم : فلق الصبح ، وفسّر قى الصبح . على أن خيراً من هذا التخرج عندي أن يكون هذا اللفظ من قولهم للذي لا نسب له : ملط ، ويقال : أملط ريش الطائر : سقط ، والملاطان : الجنبان ، سمي بذلك لأنه قد ملط عنهما اللحم أي نزع . والاملط : الذي لا شعر على جسده كله ، إلا الرأس واللحية : وكان الأحنف بن قيس أملط : لا شعر على بدنه ، إلا في رأسه . وإنما اخترت هذا لأنه لا يجوزنا إلى القول بالبدل ، مع ظهور الاشتقاق ، ووضوح المعنى فيه .

ابن جنى ، ابن ماجه

وقع السؤال عن هذه الأعلام وإعرابها . ذلك أنها تلزم السكون في الوصل والوقف ، ولا يفعل بها ما فعل بنحو سقّر وخوارزم ومصر وطبرستان وخراسان مما دخل في العربية من الأعلام : فإن هذه الكلمات تجري عليها حركات الإعراب ، وإن كانت تمنع التنوين . وقد عهدنا التزام السكون وتجنب ظهور الحركات فيما كان محتوماً من هذا الضرب بالياء الخفيفة أو الهاء . فما ختم بالياء ابن جنى - ويراعى سكون الياء وألا تشدد كياء النسب - وابن جنى أشهر من أن يعرف . فهو العالم الذي يعدّ بحق فيلسوف اللغة وجبرها : ومن ذلك على بن أحمد بن جنى ، وأحمد بن محمد بن جنى ، من المحدثين - ذكرهما صاحب القاموس - . ومما ورد محتوماً بالهاء ابن سيده اللغوي الأندلسي الضليع ، صاحب المحكم والمختص . وابن مئنه وهو أبو زكريا يحيى من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين . ومن ذلك ابن راهويه ، من جلة المحدثين . وقد حركوا الهاء إذا كان قبلها ساكن : نحو بُويه جد البويهيين أصحاب الدولة في بعض عهود الخلفاء العباسيين : وزاه لقرية قرب نيسابور : على أنا نراهم يقولون : أشنّه لقرية قرب أصهان . ويحركون الهاء - وهذه القرية ينسب إليها الأثناني اللغوي - .

ويبحث المرء عن الداعي لتسكين أواخر هذه الكلمات ، ويبدو فيما كان مخنوماً بالياء كجنى أنه لو أجريت مجرى غيرها من المقوصص لثقل في المجرور : نظرت الى جن يحذف الياء ، وهنا يلتبس بالجن ، فكان مما ينبغي دفعاً للبس إبقاء الياء في حالة الجر ، وحمل سائر الحالات عليها : وهكذا القول في جنى : ويضاف الى هذا أن الكلمة الأجمعية يراعى الإبقاء على كل حروفها ، فهذا ما بعث على بقاء الياء ساكنة . وأما المختوم بالهاء فكأن الداعي الى تسكينها أنها لو حركت لنوهم أنها تام تأنيث فأبقيت على السكون .

وبعد هذا أقول : إن هذه الكلمات معربة : إذ لا موجب لبنائها ، وإعرابها بحركات مقدرة على أواخرها منع من ظهورها سكون الحكاية ، أى حوكمي أصلها الأجمعي . ويراعى في حالة الجر أن إعرابها بفتحة نيابة عن الكسرة : لأنها من الاسماء التي منعت الصرف للعلمية والعجمة . والله أعلم .



في الاخوان

قال شاعر :

خير إخوانك المشارك في المُرّة وأين الشريك في المر أينا
الذي إن شهدت في الحضر أنة ر وإن غبت كان أذنا وعينا

وقال آخر :

إذا رأيتُ انحرافاً من أخى ثقة ضاقت على برحب الأرض أوطاني
فإن صدّدت بوجهي كي أكافئه فالعين غضبي وقلبي غير غضبان

حول كتاب الرد على النحاة

لابن مضاء القرطبي

لحضرة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

تفضل الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار ، فهدى في هذه المجلة الغراء بعدد ربيع الأول مقالا عن كتاب الرد على النحاة الذي نشرته ، وهو كتاب أراد به صاحبه ابن مضاء القرطبي أن يهدم نظرية العامل التي صغبت كتب النحو العربي وعقائدها وجعلتها عسيرة الفهم .

ومقال الأستاذ الجليل مقسم إلى قسمين : قسم خاص بمتن الكتاب ونصوصه أشار فيه إلى هنات وقعت في هذه النصوص ، وقسم خاص بآراء الكتاب أشار فيه إلى ما في هذه الآراء من خطأ وفساد ، وسأعرض لمناقشة كل قسم على حدة .

هنات المتن والنصوص

أما الهنات التي أشار إليها الأستاذ الجليل فأكثرها ظنون واقتراحات في قراءة بعض عبارات النصوص ، وهي في أغلبها مجرد افتراضات ؛ فمن ذلك ما جاء في الكتاب ص ٨٣ من قول ابن مضاء : « ولعل قائل يقول : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهي بنفسه الحفي ذكاه وأى ذكاه » : وسياق الكلام هنا يدل على أن ابن مضاء يحكي على لسان شخص قد يلومه فيقول : « أيها الأندلسي الذي خلا له الميدان في الأندلس فهو يجري فيه ولا يجري فيه أحد معه ، ولو كان في المشرق بين علماء النحو وعلى رأسهم سيبويه ما أجرى إلى هذه الغاية من الطعن على النحاة وعلى سيبويه خاصة . ومن هنا قلت في هامش الكتاب : إن ابن مضاء يريد بالحفي ذكاه - فيما يظهر - سيبويه . وقد ذكره بعد ذلك صراحة ، والكتاب كله مؤلف لرد نظرية العامل التي جاء بها : ومعروف أن

كتاب سيبويه . أصل النحو العربي ، وأصل نظرية العامل التي تشبث بها النحاة جميعاً . وهذا الفهم وما يطوى فيه من توجيه للعبارة لم يُرض الأستاذ الجليل ، ولذلك اقترح أن نقرأها هكذا : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهي بفضه الخفي ذكاه وابن ذكاه ، وذكاه بالضم الشمس وابنها الصبح . ولا ريب أن في هذا تكلفاً شديداً في التعبير لساناً بحاجة إلى بيانه ووصفه ، ولو اقترح الأستاذ الجليل أن نقرأ كلمة الخفي وحدها بالخفاء المعجمة أي أن نقرأها الخفي ما أنكرنا عليه ، وقلنا هذا احتمال ممكن ، وقد عرض لنا أثناء النشر وفضلنا عليه الاحتمال الأول .

وهذا السياق في الكلام والحديث عن سيبويه جعلني أقرأ عبارة تالية رواها ابن مضاء على لسان هذا الشخص الذي يلوه على هذا النحو « أنزرى بنحوي العراق » . ونشرتها هكذا بالإفراد في كلمة نحوي ولم أجمعها كما يرى الأستاذ الفاضل لأن الأولى أكثر اتساقاً مع السياق . وربما كان خيراً من اقتراحه أن نقرأ العبارة هكذا : « أنزرى بنحو العراق » بدون ياء ، وهذه قراءة جيدة ولكنني فضلت الأولى لأنني وجدت في الأصل الياء .

وقد رجح الأستاذ الجليل أن نقرأ الفعل ، يكون ، في العبارة الآتية بصيغة المؤنث لا بصيغة المذكر كما نشرتها في ص ٨٥ وهي : « فمن ذلك ادعاؤهم - النحاة أصحاب نظرية العامل - أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، ولا أزال عند رأي وذوق في أن صيغة الفعل هنا بالمذكر خير من صيغته بالمؤنث ، والطريف أن الأستاذ الجليل يحيزها ، ومع ذلك يتقدمها ويعتبرها هتافاً !

ونقل ابن مضاء عن الخصائص في ص ٩٣ هذا النص : « اعلم أن إجماع أهل البلد إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف المنصوص والمتميس على المنصوص » وقرأت أنا الصيغة هكذا : تخالف ، ورأى الأستاذ الجليل أنها ليست كذلك ، إنما هي يخالف ، وأنا لا أؤيد رأيه ، فهو ممكن ، ولكن أقول إن رأيه يقبل ، وكذلك رأيي : لأن الكلام دائر بين شخصين وموقف كل منهما من صاحبه ، ولذلك يصح أن يكون الفعل تخالف أو يخالف . أما كلمة الترحيب التي جاءت في نص الخصائص هذا فلعلها بالجيم .

وجاء في كتاب ابن مضاء ص ١١٨ : « ومن الأبواب التي يظن أنها تعمّر على من أراد تفهيمها وتفهمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لي إلى إنكار العامل والمعمول . . ورأى ذلك الأستاذ الجليل فتبادر إلى ظنه أن العبارة مضطربة وأن كلمة « ولا داعية لي إلى إنكار العامل والمعمول » لا تتماشى مع السياق ، ولذلك أصلحها على هذا النحو : « ولي داعية إلى إنكار العامل والمعمول » . والعبارة ليست في حاجة إلى هذا التصحيح ، فابن مضاء يقول : ومن الأبواب التي يصعب أن تفهمها أنت أو تفهمها لغيرك بدون أن تؤمن بنظرية العامل ، لأنه يتحتم أن تكون موضع عامل ومعمول ، والحال أنه لا داعية لي إلى إنكار العامل والمعمول الخ . وهذا كلام واضح لا يحتاج تغييرا ولا تصحيحا ! . وقد عرض الأستاذ الجليل عقب ذلك لبس جرير ، :

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم طيبة والحشايا

واستظهر أن تكون الفوارس بالنصب لا بالجر ، لأنها صفة لثعلبة ، وجرها يكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومع أن هذا غير ممتنع وله أمثلة معروفة تذكرها كتب النحو ، قلبي لا أتمسك به وأرى أن الإضافة هنا على حقيقتها في بابها الخاص . ومن هنا كنت لا أوافق الأستاذ الجليل على نصب كلمة الفوارس .

وذكر ابن مضاء أثماء استشهادا على النصب بعد الفاء في التثنية قوله تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهون » . وحتم الأستاذ الجليل أن تكون القراءة هنا : « ودوا لو تدهن فيدهنوا » ، لأن ابن مضاء بصدد الاستشهاد على النصب في التثنية لا الرفع ، وإنما جئت بالقراءة الأولى لأنها هي التي ذكرها ابن مضاء نفسه ، وكأنه يريد أن يلفت قارئه إلى أن الفعل المضارع قد يرفع مع التثنية إما على العطف أو على التقطع . وقد رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدته يشير إلى ذلك في باب نصب المضارع بالفاء ويذكر نفس الآية الكريمة . وهذا ما دفعني إلى أن أبقى على الأصل بدون تغيير ، وخاصة أنه يلفتنا إلى أن المضارع قد يرفع بعد الفاء في التثنية . وأظن من حق ابن مضاء أن يلفتنا إلى ذلك . ولا أزال أرى أن الفعل المقدر في مثل : أزيذا ضربته ينبغي أن تقدر معه الهمزة وإن لم تشر إلى

ذلك جمهرة النحاة، لأننا إن لم نصنع خرج الكلام من باب الإنشاء إلى باب الخبر !

أما قول ابن مضاء في ص ٨٢ عند عدم الرعى والماء فلا أمتنع أن تكون الكلمة الرعى بالكسر وإن كنت لا أجد مانعاً من أن تكون بالفتح . وأكبر الظن أن الأستاذ الجليل يتفق معنا الآن بعد استعراض هياته التي أخذنا بها أنها مجرد افتراضات . حقاً بقي من هياته هيتان مطبعيتان هما : كلمة إيسن وهي الأمر من وسن في لغة شاذة ، فقد جاءت في الكتاب إيسن : ثم كلمة : ، ونور بنور الإيمان خلده ، . فقد جاءت : ، ونور بنوره الإيمان خلده ، وهذا خطأ مطبعي واضح . وأنا على كل حال أشكر للأستاذ عنايته بالكتاب وقراءة نصوصه قراءة فاحصة . ولعل من الواجب أن أذكر أني نشرت هذا الكتاب من نسخة حديثة حرفت فيها الكلم عن مواضعها ، وشوهت تشويهاً شديداً ، ولولا أني استعنت بكل ما أمكنني الرجوع إليه من مؤلفات في النحو مخطوطة ومطبوعة ما استطعت أن أخرجه إلى الباحثين .

نقد الأستاذ الجليل لا بن مضاء

وذهب الأستاذ الجليل بعد حديثه في الهنات والافتراضات السابقة ينقد ابن مضاء ، وبدأ هذا النقد ببيان محدود جداً لنظرية ابن مضاء في هدم العامل في النحو العربي وكل ما يرتبط به من تقديرات وتأويلات وعلل وأقيسة . وإني أستاذن الأستاذ الجليل في أن ألخص نظرية ابن مضاء في كتابه حتى نكون أكثر وضوحاً ودقة فيما نعرض له من ذلك .

لقد استهل ابن مضاء كتابه بقوله : « قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوي عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ؛ فمن ذلك ادعاءهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا ضرب زيد عمراً أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمراً إنما أحدثه ضرب ، وذلك بين الفساد .

وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جنى وغيره : قال أبو الفتح في خصائصه بعد كلام في العوامل اللفظية والعوامل المنوية : وأما في الحقيقة ومحصل الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للتكلم نفسه لا لشيء غيره . .

ابن مضاء إذن ينادى في مفتتح كتابه بأن فكرة العامل في النحو ليست صحيحة لأن الذى يعمل الحركة في الكلام كما يقول ابن جنى ليس هو مثل ضرب وإنما هو المتكلم نفسه . وهذا كلام منطقي . ومن هنا يقول ابن مضاء : إن الإيمان بأن لفظاً يحدث حركة في اللفظ التالى له لا يقول به عاقل .

وقد ناقش الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار هذه الفكرة وقال : إن النحويين بحمد الله عقلاء ، وإنهم إنما يقولون بالعامل النحوى على سبيل المجاز . وكأنى بالأستاذ نسي ما قاله ابن مضاء فى ص ٨٨ إذ لا يكتفى فى هدم نظرية العامل بأنها تخالف منطق العقل فيقول : ربما زعم بعضهم أن هذا العامل النحوى إنما مثل عاملاً على وجه التشبيه والتقريب لتيسير تعلم العربية . وأظن أن هذا نفسه ما يقول به أخيراً الأستاذ الجليل ؛ لأن وجه التشبيه والتقريب هو نفسه وجه التجوز الذى قال به .

وقد رد ابن مضاء نفسه على ذلك بأننا لسنا فى حاجة الى فكرة العامل ولو كانت على وجه التشبيه والتقريب أو على وجه التجوز لأنها تحط كلام العرب عن رتبة البلاغة ، إذ نرى النحاة يحيلون الكلام عن وجهه من الفصاحة بما يقدرون فيه من عوامل مخدوفة . ولقد أفضى بهم ذلك الى أن يرفضوا أساليب عربية فصيحة ويضعوا مكانها أساليب نحوية ركيكة إرضاء لنظرية العامل .

ليست المسألة مسألة استعمال اصطلاح نحوى بضرب من التجوز ، إنما هى مسألة خطيرة ؛ فقد جاء النحاة وعلى رأسهم سيبويه باصطلاح أفسد نحوهم وملاءه بتقديرات وتأويلات لا دليل عليها فى اللغة ، ومع ذلك فقد جعلوا هذا الاصطلاح القطب الذى دارت عليه رحى النحو كله .

وابن مضاء يستطرد من ذلك الى بيان ما جرت به نظرية العامل في النحو العربي من تصعيب وتعقيد، وما جرت به أيضا من رفض لأساليب العربية وأخذ بأساليب نحوية مضطربة: ونراه يعقد من أجل ذلك فصلا للعوامل المحذوفة في الكلام من مثل تقدير «أدعو»، في نحو «يا عبد الله»، وتقدير «مستقر أو استقر»، في مثل «زيد في الدار»، وينتهي من استعراضه لكل ذلك الى نفي فكرة العامل المحذوف، وأن الكلام ينبغي أن يعرب كما هو بدون تقدير ولا تأويل.

ولم يكتف ابن مضاء بإلغاء فكرة العامل المحذوف، فقد دعا أيضا الى إلغاء فكرة المفعول المحذوف وكذلك المفعول المستتر في مثل «زيد ضارب عمرا»، فضارب ليس فيها ضمير مستتر تقديره هو بل هي تدل على هذا الضمير الذي يسمى فاعلا بمادتها، ومثلها في ذلك ضرب في نحو «زيد ضرب»، وقد استدل ابن مضاء على ذلك بالفعل المضارع في نحو أعلم ويعلم وتعلم؛ فإن الفعل يدل بمادته على الفاعل وأنه متكلم أو غائب أو مخاطب. وكذلك الشأن في ضرب فهي تدل على الفاعل وأنه غائب مذكر بمادتها؛ وبذلك ينهي ابن مضاء الى أن الفعل يدل على الحدث والزمان كما يقول النحاة، ويدل على الفاعل أيضا كما يقول هو، وكما نرى في الأمثلة السابقة.

ويناقش ابن مضاء بعد ذلك باين «شهورين» في النحو بكثرة التأويل والتقدير في عباراتهما، وهما باب التنازع وباب الاشتغال. أما التنازع فإن النحاة يبحثون فيه صورة من التعبير دارت على السنة العرب وفيها نجد فعلين وراهما فاعل أو مفعول مثل «آمن وصدق المسلمون»، يقول علقمة:

تعتق بالارطى لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب

وقد رد النحاة هذه الصورة من التعبير لأنه لا يصح في رأيهم أن يتسلط عاملان على معمول واحد أو بعبارة أدق لا يصح أن يجتمع مؤثران على أثر واحد. وإذن فيما أن تعمل الأول وتضم في الثاني أو تعمل الثاني وتضم في الأول، فتقول: آمن وصدقوا المسلمون على رأي الكوفيين، أو تقول آمنوا وصدق المسلمون على رأي البصريين؛ ويستمر النحاة فيضمرون المفعولات كما أضمرنا

الفاعل ، وإنهم ليستخرجون أثناء ذلك كثيراً من الصور المعقدة وخاصة في أبواب الأفعال التي يعدونها إلى مفعولين أو أكثر نحو قولهم : « ظننت وظناني شاخصا الزيد بن شاخصين ، وقولهم : أعلمت وأعلمانيهما الزيد بن العمر بن منطلقين ،

ويحمل ابن مضاء حملة شعواء على مثل هذه الصور المرتبكة التي ليس لها نظير في كلام العرب ، وإنه ليرفضها ويرفض معها نظرية العامل التي جعلت النحاة يردون صورة أصيلة من التعبير العربي ويضعون مكانها صوراً نحوية مرتبكة .

ويخرج ابن مضاء من بحث باب التنازع إلى بحث باب الاشتغال وما جاء فيه النحاة أيضاً من صور مضطربة لم ترد عن العرب من مثل : « أزيذا لم يضربه إلا هو ، وأخواك ظناهما منطلقين ، وأنت زيدا ضربته ، إلى غير ذلك من أساليب لم تأت في العربية ولكن جاءت في كتب النحوي لترضى نظرية العامل وما يتصور لها النحاة من سلطان وكبرياء . ونرى ابن مضاء يحمل هنا على مثل هذه الأساليب غير المستعملة ، كما نراه يحمل على طريقة درس النحاة للباب عامة وتقسيمهم لأساليبه بين ما يجب رفعه وما يجب نصبه وما يرجح فيه الرفع وما يرجح فيه النصب وما يجوز فيه الأمران ، مقدرين — في أغلب العبارات — عوامل مضمرة لا دليل عليها في قول المتكلم . وكل ذلك يرفضه ابن مضاء ويضع مكانه قاعدة بسيطة ، وهي أن الاسم السابق للفعل في هذه العبارات إن عاد عليه ضمير رفع رفعناه ، وإن عاد عليه ضمير نصب نصبناه ، وبهذا حل مشكلة باب الاشتغال ، وربما كان أكثر الأبواب النحوية تصعباً وتعقيداً .

وقد وقف الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي التجار على هذا كله فلم يعجب به . بل لقد ذهب يبين ما في إنكار ابن مضاء لتقدير النحاة فعلاً محذوفاً في مثل زيدا ضربته من فساد مداره أنه ينكر بذلك فكرة التعدى واللزوم المشهورة في النحو . وليس من ريب في أن ابن مضاء ينكرها ، وهل يمكن أن يؤمن بها وهي جزء من نظرية العامل وأن منه متعبداً ولازماً ؟ لقد ألغى ابن مضاء نظرية العامل وكل ما يتصل بها من تقدير وتعليل وتقدير ، وأيضاً فقد دعا إلى أن تلغى معها كل

ما في كتب النحو من جدل وأقيسة وعلل . وليس ذلك كل ما دعا إلى إلغائه . فقد دعا أيضا إلى إلغاء التمارين غير العملية من مثل قول النحاة : ابن من البيع على وزن فُعَل ، مادام ذلك لم يأت في اللغة .

وأنا لا أرتاب في أن آراء ابن مضاء لا تزال في حاجة إلى مناقشة واسعة ، وهي مناقشة قد تنتهي بنا إلى هدم الإطار الذي رسم فيه النحو القديم كله . ولن يضيرنا ولن يضير النحاة السابقين ذلك ، فقد أدوا لنحوهم — كما تصوره مؤسسا على نظرية العامل — رسالة كاملة . ولست أبالغ إذا قلت إن العقل العربي المشتعل ذكاء لم يخدم علما لغويا كما خدم النحو العربي . ونحن تكبر هذا العقل ونكبر النحاة معه . ولكن هذا لا يمنعنا أن نحاول التجديد في النحو ما دامت هناك حاجة حقيقية إلى هذا التجديد .

ولقد نشرت هذا الكتاب « الرد على النحاة لابن مضاء » ، ووضعته بين يدي الباحثين المحدثين حين رأيت الجهود تنحفر من كل جانب لإصلاح النحو العربي وتذليل كتبه وتيسير قواعده . وهذا ما جعلني أقدم له بمدخل واسع بينت فيه حاجتنا إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً حتى نرفع عن الناس ما يفدحهم ويثقل كاهلهم في تعلمه . وقد حاولت بعد ذلك أن أضع للنحو تصنيفاً جديداً مهتدياً فيه بما دعا إليه ابن مضاء من تصفية النحو العربي لا من نظرية العامل فقط بل من كل ما يتصل بتصعيبه وتعقيده . ولست أزعم أن هذه التصنيف نهائي ولا شبيه بالنهائي إنما هي صورة مثلت بعد درسي للنحو على هدى آراء ابن مضاء في ذهني ومثلتها لحضرات الباحثين . وقد وعد الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار بمناقشتها . وإني لا تنهر هذه الفرصة فأحييه تحية طيبة ، سائلاً الله أن يرزقنا السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل .

شىء من الذوق !

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير دار الكتب الأزهرية

نشرت إحدى الصحف الأسبوعية تحت عنوان : رأس السنة ، ما يلى :

بلغت الاسعار فى ليلة رأس السنة رقعا قياسيا ؛ فقد كان رسم الدخول وثمان
العشاء فى «الاورج» للشخص الواحد أربعة جنيهات ونصف جنيه ، وفى «شبرد»
أربعة جنيهات ، ومع ذلك لم يكن فيهما موضع قدم .

قرأنا ذلك الخبر ، فأخذ منا العجب ، وفاضت نفوسنا بشتى الأحاسيس ، وحاولنا
توجيه ذلك الهوس والإسراف فلم نفلح . وأى هوس وأى متاع ذلك الذى يدفع
ببعض الناس الى هذا الإسراف والى التراحم على الظفر به ، والتسابق فى المشاركة فيه ! .

وما بال هؤلاء الناس ، وفى أى أمة يعيشون ، وبأى إحساس يحسّون !
ألم قلوب يفقهون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها !
لو كان هؤلاء من صميم الشعب يألمون لألمه ، ويهتمون لهمه ، ويفكرون فيما يفكر
فيه ، ويعانون ما يعاينه ، لشغلهم ما يشغله ، أو لدعتهم المجاملة والذوق على الأقل
إلى أن يشاركوه فى محنه وكوارثه ولو بالمظاهر ، إن لم يشاركوه بالقلوب والضمائر .

إن الشعب المصرى - ككل شعوب العالم - يحتاجه المحن ، وتظهر عليه
الشدائد ، ويجاهد ساسته وقادته عليهم أن يجدوا منها مخرجا ، أو يستطيعوا لها فرجا .

يعجّ الشعب المصرى بمختلف المشاكل ، وتدور فى خلد بعض أفراد شتى الأفكار
والمذاهب ، وتشغله مجتمعا قضيته السياسية التى تظاهرت ضدها قوى الشر والاستعمار ،
وتشغله وطأة الغلاء التى أخذت بمنافسه ، وعقدت عليه أسباب الحياة ، وتشغله
نازلة الكوليرا ، وتهده فى الأرواح والأرزاق ، وتشغله مشاكل أخوته وجيرانه
من الشعوب العربية ، وبخاصة فلسطين ؛ وتشغل كل طائفة من طوائفه أحوالها المالية
والأدبية ، وتكاد تخرج بعض هذه الطوائف من جادة العقل ومنهج الرشاد .

تشغل الشعب وتشغل طوائفه هذه الأحداث ؛ ولكن عصابة من هؤلاء الأغنياء لا يجدون فيها مشغلا ، ويجدون من فضل أوقاتهم وسعة أموالهم مجالا للهو والمتاع البغيض ، ويسترخصون في سبيله البذل ، ويستقلون العطاء .

ولو أن هؤلاء الذين يدفعون في الليلة الواحدة أربعة جنيهات ونصف جنيه للعشاء ورسم الدخول ، عدا ما يستلزمه العشاء ويستلزمه الهناء من نفقات إضافية ، قيل لهم في جد الأمور وعظائم الأحداث هاتوا شيئا من أموالكم نكسوا بها عراة ، أو نطعم بها جياعا ، أو نرفه بها عن المرضى والمنكوبين من إخوانكم في الوطن أو الدين ، لكفتوا أيديهم ، وهزوا رموسهم ، وولتوا مدبرين .

إننا لانتجنى على هؤلاء فيما نقول ، ولانفرق فيما ندعى ؛ فهأى ذى قوائم التبرعات لمنكوبى فلسطين ومنكوبى الكوليرا ، فهل شرفت هذه القوائم بأسماء كثير منهم ! إنه ليحز في نفوسنا أن تخلو أمكنة هؤلاء في هذه القوائم ، وتعمر بأسماء صغار الموظفين ، وطوائف العمال والصناع ، ممن عمرت قلوبهم بالإيمان ، وغمر نفوسهم حب الوطن .

نحن لا نحسد هؤلاء على ما آتاهم الله من فضله ، ونؤمن عن يقين بقسمة الله تعالى في الأرزاق ، وأنه يمنع من يشاء بغير حساب ؛ ولا نطمع ولا نرضى لغيرنا أن يطمع في أموالهم بغير طوعية من أهلها ، وبالوسائل التي يتوسل بها غيرنا في بلاد أخرى ، ولكننا نذكرهم بحق الله في أموالهم ، وبحق الفقير والبائس والمحروم في غناهم ، ولا نطالبهم باسم الدين ، فالدين أبعد ما يكون عن خواطرهم ، ولكننا نطالبهم باسم الوطن الذي وهب لهم هذه الأموال وهذه الخيرات ؛ وباسم الفلاحين والعمال الذين يعملون لهم في مزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم ، تلفح وجوههم حرارة الصيف ، ويقاص أطرافهم زمهرير الشتاء ، يواصلون الليل بالنهار فلا يصلون الى الكفاف .

سنطالبهم باسم المدنية والمروءة والذوق والانسانية أنت يكونوا أعوانا لإخوانهم في الشدائد ، ولأوطانهم ذخرا في الملمات .

نطالبهم أن يكونوا لأوطانهم كبعض الأجانب الذين قدروا للوطن قدره وعرفوا له حقه ، فلبوا نداء الوطن وداعى الذوق والمجاملة ، وبذلوا في مواطن البر منه بعض ما وهب لهم من خير ، وسجلت لهم في صحائف المجد والذكر آيات الحمد والتقدير .

في ذكرى مولد الفاروق :

تولية محمد على الكبير

العلماء يختارونه لمصلحة الشعب

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

عند ما يحىء اليوم الحادى عشرى من شهر فبراير من كل عام ، يستقبله الشرقيون عامة والمصريون خاصة والأزهريون على الأخص بقلوب مستبشرة ووجوه فرحة ، ونفوس مطمئنة عامرة بالإيمان .

عند ما يحىء هذا اليوم السعيد من شهر فبراير في كل عام يستقبله الشرقيون والمصريون والأزهريون خاصة بهذه القلوب المستبشرة ، وهذه الوجوه الفرحة المتهللة ، والنفوس مطمئنة ، لأنه يقع في ذكرى مولد صاحب الجلالة الملك العظيم فاروق : وكل يوم يقترن ذكره بذكر صاحب الجلالة الفاروق فهو يوم البشارة والفرح والتهلل واطمئنان القلوب العامرة بالإيمان .

الإيمان بمجد مصر ، ومجد العرب ، ومجد الاسلام . والفاروق ، حفظه الله ورعاه ، هو رمز هذه الأجداد جميعا ، هو رمز المجد لمصر ، فهو العامل الساهر على مجدها وسؤددتها ورفع شأنها ، وأن تال مكانها اللاتق بها بين أمم الارض .

هو رمز المجد للعرب ، فهو العامل الساهر على مجدهم وسؤددهم ورفع شأنهم وتوحيد جهودهم وصمودهم لما يقع عليهم من عنت وضغط وإرهاب .

هو رمز المجد للإسلام ، فهو العامل الساهر على مجده وسؤدده ، وإحياء ما كان له من قوة وشمول ورفع شأن . والأزهر هو القائم على تراث الاسلام والحفيظ على ما له من قوة كاملة موفورة لم يور زندها ولم تشعل نارها ، ولم يتوهج بعد نورها ؛ وهو يخرج هذا السكامن الموفور من قوته ، ومور زنده ، وشعل ناره ، وموهج النور الساطع الفياض منه إن شاء الله .

فمن حق الأزهر ومن حق أهله خاصة أن يبتهجوا ، وأن تستبشر قلوبهم ، وأن تهلل وجوههم ، وأن تطمئن نفوسهم عامرة بالإيمان عند اليوم الحادى عشر من شهر فبراير . يوم الذكرى السعيدة ، لمولد الملك العظيم فاروق .

وللأزهر واتصاله بالأسرة العلوية حديث قديم ، بدأ حيث بدأ مؤسس هذه الأسرة الكريمة أن يلى شؤون هذا الوطن العزيز الذى أحبه محمد على وقضى حياته كلها عاملاً مجداً دؤوباً على رفع شأنه والتمسكين له ، أن تجدد فيه الحياة ، وأن تنمو وتطرد حتى تصبح شباباً وفتوة ، وحتى أصبح اسم محمد على قريناً للنهضة المصرية الحديثة ورمزاً لها .

وكذلك أحب هذا الوطن العزيز محمداً علياً ، وحفظ له أعز ذكرى وأعز مكان من الإجلال والتمجيد والاكبار .

وسنجد فيما تلخصه فى الصفحات القادمة عن الجبرتى ، أن علماء الأزهر هم الذين اختاروا محمداً علياً ليكون والياً على مصر ، وأنهم اختاروه لما وجدوا عنده من الرأفة بالشعب والمحبة له والعدل فيه .

وجد شيوخ الأزهر فى ذلك العهد هذه الصفات الكريمة ، من المحبة للشعب والعطف والعدل والشجاعة أيضاً ، موفورة عند محمد على ، فاختاروه والياً على مصر ؛ ووجدوا كذلك أن الشعب المصرى الذى أهاض جناحه وأفسد حياته ظلم المماليك يحب محمداً علياً ويريده والياً عليه ، فحقق علماء الأزهر لهذا الشعب المبهض المظلوم أن يولى عليه ذلك الرجل العطوف العادل الشجاع : محمد على الكبير .

• • •

يذكر الجبرتى فى حوادث شهر المحرم من سنة ١٢٢٠ الهجرية : أن محمداً علياً قدم القاهرة من الصعيد حيث كان يحارب المماليك : ويقول فى حوادث يوم الخميس الحادى عشر من شهر المحرم هذا : إن أحمد باشا خورشيد والى مصر فى ذلك الوقت طلب المشايخ والسيد عمر مكرم والولجاقلية وأرباب الديوان ، فلما اجتمعوا قال لهم : إن محمد على وحسن باشا راجعان من قبلى من غير إذن

وطالبان شرا، فإما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا الممالك، وإما أن يذهبا إلى بلادهما وأعطيهما ولايات ومناصب في غير أرض مصر، ومعنى أمر من السلطان وكيل مفوض ودستور مكرم أعزل من أشياء وأولى من أشياء وأعطى من أشياء وأمنع من أشياء^(١).

بهذه اللهجة التي تم عن الغضب والتوجس كان أحمد باشا خورشيد والى مصر يتحدث عن دخول محمد على القاهرة، ولكن محمدا عليا دخل القاهرة كما يقول الجبرتي بعد عصر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر المحرم هذا، وذهب إلى بيته بالأزبكية، فنع أحمد باشا المشايخ والوجاقلية من الذهاب إلى محمد على والسلام عليه. وفي يوم الجمعة ١٠ صفر من السنة نفسها ورد تقليد لمحمد على بولاية جدة، فامتنع من طلوع القلعة ليلبس الخلعة بهذه الولاية، ثم اتفقوا على أن ينزل الوالى إلى بيت سعيد فيلبس محمدا عليا الخلعة فيه.

وبعد إلباس محمد على خلعة الولاية على جدة يومين اثنين، ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعلمين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بهوهم: شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم! وطلبوا من القاضى أن يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع... لحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرض حال بالمطلوبات، ففعلوا ذلك... وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة إلى القاضى يرقق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة^(٢).

ولكن القاضى والعلماء لم يذهبوا الى الوالى كما طلب، لأنهم خشوا خديعته، وحضر لهم من أخبرهم أنه أعد لهم كميناً يغتالهم وهم فى طريقهم اليه.

ثم يقول الجبرتي: «فلما أصبحوا يوم الاثنين^(٣) اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع الكثير من العامة فنعوهم من الدخول الى بيت القاضى وقفلوا

(١) ص - ٣٤٧ جزء ٣ من الجبرتي طبع المطبعة الشرفية.

(٢) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتي.

(٣) يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ وهو يوافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ميلادية.

بابيه ، وحضر إليهم أيضا سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له : إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية . فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولا ثم رضى . وأحضروا له كرعا وعليه قفطان وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة ، وأرسلوا إلى أحمد باشا الخبر ^(١) .

ولم يرض أحمد باشا بطبيعة الحال هذا التنصيب وهذه التولية من العلماء وأهل الرأي واختيارهم محمدا عليا ، بل قال إني مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة ، ^(٢) .

وفي هذه الفترة من النزاع بين محمد علي وبين أحمد باشا الوالى المخلوع ، نستطيع أن نستبين فيما دونه الجبرتي ظاهرتين لازمتا هذه الفترة كلها من النزاع حتى استقر الأمر لمحمد علي :

الظاهرة الأولى : تشدد العلماء عامة ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف خاصة ، في أمر تمكين محمد علي من الاستيلاء الفعلي على السلطنة ، وهذه الفقرة مما كتبه الجبرتي تصور لنا إلى حد بعيد هذا التشدد . وركب السيد عمر أفندى في قلة من الناس وذهب إلى بيت حسن بك أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة في الكلام طويلة ، ومن جملة ما قال : كيف تعزلون من ولاة السلطان عليكم وقد قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ؟ فقال له : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاية ، وهذا شيء من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعوناه ^(٣) .

أما الظاهرة الثانية : فهي هياج الشعب وثورته على الوالى المعزول حتى ينزل من القلعة ، وحتى يستطيع محمد علي أن يوطد لنفسه الحكم ؛ فقد كان الشعب

(١) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتي .

(٢) ص - المصدر نفسه .

(٣) ص - ٣٥٢ جزء ٣ من الجبرتي .

أو « الفلاحين » كما قال أحمد باشا المعزول ، يرى أنه قد اختار لنفسه واليا يجد عنده المحكومون « العدالة والخير » فهم لا يستقر لهم قرار حتى يستطيع هذا الحاكم العادل الخبير أن يحكم فيهم ، وهم حريصون على ذلك حتى « إن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا ، وحضرت عربان كثيرة من نواحي الشرق وغيره ^(١) كما يقول الجبرتي .

وقد بلغ من تأييد المصريين لمحمد علي في موقفه هذا ضد الوالي المخلوع أن أرسل هذا الوالي فرمانا إلى بعض أنصاره في قليوب يقول فيه : إنه « يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة انساموسها وناموس الدين ، وإن « الفلاحين ... ! » محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب . فلما وصل ذلك الفرمان إليهم بقلوب أرسلوه إلى محمد علي وأرسله محمد علي إلى السيد عمر أفندي النقيب ^(٢) .

ويقول الجبرتي في حوادث الشهر نفسه : إن المعلم جرجس الجوهري وهو من وجوه القبط في ذلك التاريخ كان من المردة على بيت السيد عمر مكرم المشاركين له في تأييد محمد علي ، وإنه كان يجتمع بالشيخ الشرفاوي والشيخ الأمير والقاضي في بيت السيد عمر لتدبير الأمر في نصرة محمد علي والعمل على هزيمة أحمد باشا خورشيد ^(٣) .

وهكذا بقي الحال زمنا بين العلماء والشعب ومحمد علي من جانب ، وبين خورشيد باشا الذي تحصن بالقلعة لا يريد أن يرحلها إلا بأمر من السلطنة كما يقول .

ولكن الجبرتي بعد ذلك يقول : إن أمرا ورد من السلطنة بتولية محمد علي وخلع أحمد باشا خورشيد ، ولكنه لم يمثل ؛ ففي يوم الاثنين ١١ من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ ^(٤) وصل الخبر بوصول القابجي إلى قليوب ، وأنه طلع إلى برّفوه

(١) ص - ٣٥٢ ج ٣ من الجبرتي .

(٢) ص - ٣٥٣ » » »

(٣) ص - » » » »

(٤) يوافق ١٠ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

وسار من هناك . فلما أشيع ذلك اجتمع الناس وطوائف العامة ، وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول إلى خارج باب النصر ووقفوا بالشوارع والسقائف ... الخ ^(١)

ثم يصف الجبرتي بعد ذلك استقبال القاهريين لمن يحمل إليهم أمر تنصيب محمد علي وعزل خورشيد وصفا شاقا إلى أن وصل القادمون إلى الأربكية فنزلوا ببית محمد علي باشا وحضر المنيخ والأعيان وقرءوا المرسوم الذي معه ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا وإلى أمدة سابقاً وإلى مصر حالا النداء من عشرين ربيع أول ^(٢) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه إلى الإسكندرية حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات ^(٣) .

فمن هذا التاريخ الذي أورده الجبرتي تبدأ ولاية محمد علي الرسمية بأقرار الباب العالي لما اختاره العلماء والشعب .

ولكن خورشيد باشا لم يمثل أمر السلطنة لعزله وتولية محمد علي وقال : « أنا متول بخطوط شريفة وأوامر ميفة ولا أنزل بورقة مثل هذه » ^(٤) ، وبقي خورشيد حتى بعد هذا الأمر من السلطنة ممتنعاً تأخذه العزة بالإثم يأبى أن ينزل على رغبة الشعب أو على أمر السلطان .

وفي يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني من العام نفسه ^(٥) « وصل السلحدار إلى بولاق وركب من هناك إلى المكان الذي أعد له وصحبه مكاتبه إلى أحمد باشا المخلوع ومضمونها الأمر بالنزول من القلعة ساعة وصول الجواب إليه من غير تأخير وحضوره إلى الإسكندرية ، وجواب آخر إلى محمد علي

(١) ص ٣٥٦ — ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتي .

(٢) ١٩ يونيو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

(٣) ص ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتي .

(٤) ص ٣٥٨ > > »

(٥) ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

بإيمانه في القائمقامية حيث ارتضاء الكافة والعلماء ، والوصية بالسلوك والرفق بالرية (١) . ولم يمتثل خورشيد باشا مرة أخرى لهذا الأمر من السلطة .

ولكن قوة الشعب والعلماء وإصرارهم على خلع خورشيد باشا وتنصيب محمد على والحصار الذي ضربوه جميعاً على خورشيد في القلعة جعله يسلم ويخرج من هذا العناء فينزل حريمه من القلعة وكثيرين من رجاله في يوم الاثنين التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ ثم نزل الباشا المخلوع من باب الجبل في رابع ساعة من النهار ، في اليوم الثاني ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ (٢)

وهكذا مكن محمد على الكبير في مصر ، وانتصر العلماء ، والفلاحون ، على خورشيد باشا الأرثوذكسي ومن كان معه ، واختار الشعب والياً عليه من رأى عنده العدالة ، فيهم ، والخير ، لهم . وأقرت السلطة هذا الشعب على اختياره حيث ارتضاء الكافة والعامّة ، حتى سعى في تنصيبه قبط مصر ، كما رأينا من قبل .



ونحن نجد بعد هذه السنين الطويلة وبعد هذه النهضة الجبارة التي حققها محمد على لمصر ، وذلك الأمن والأمان والاستقرار الذي شمل البلاد المصرية وملحقاتها جميعاً ؛ نجد من هذا كله أكبر دليل على فراسة علماء الأزهر وإخلاصهم وصادق حسهم وحسن تقديرهم حين وقع اختيارهم على محمد على الكبير ليكون والياً على مصر ، وعلى صدق تلك الحاسة الشعبية الموفقة التي أجمعت على تأييد محمد على عندما اختاره العلماء كما أجمعت على إكباره وحبّه .

واعتقد أن خير ما يروى على الناس في عيد الملك العظيم فاروق شبل إسماعيل ومحمد على الكبير ، هو هذه الصفحات الناصعة المشرقة من تولية محمد على واختيار علماء الأزهر ، والفلاحين ، له ، لمصلحة الشعب .

أعتقد أن هذه الصفحات الناصعة المشرقة هي خير ما يروى للناس باسم الأزهر في عيد هذا الملك العظيم فاروق .

(١) ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ج ٢ من الجبرتي .

(٢) ص ٣٦١ د د د

الغزل

في كامل المبرد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى اسماعيل
المدرس بكلية اللغة العربية

الغزل ضربان : ضرب ترى عليه مسحة اللهو ، وسيا المجون ، ولم يقصره صاحبه على غانية ، إنما جعل فيه لكل غانية تراءت له نصيبا ، وكل فتاة لها حظ من الجمال قسما موفورا .

وضرب آخر تعرف العفة في ألبانه ، وتكاد تلس الكرم والظمر بين أجزائه ، ينم كل مقطع منه عن عاطفة مشبوبة ، وصباية صادقة ، وحب عفيف غير مشوب بما ينكر معاملة ويفسد جوانبه .

هذان الضربان وقاهما المبرد حقهما من الاختيار ، وذكر كثيرا من رجالهما .

فقد أفرد الباب الخامس والعشرين والخامس والأربعين للغزل ، ولن ترى فيهما لغيره إلا أن يكون شاهدا على وضع لغوى ، أو مذهب نحوى . وفي الباب الذى عقده للغناء ، والذى عقده لالترويح عن القارئ ، والذى عقده للتشبيه ، شعر كثير يتعلق بالمرأة وأوصافها ؛ وبين هذه الأبواب فصول جرت فيها محاورات بين شعراء الغزل تزيد مادة النسيب ، ويزداد بها النقد الأدبى . ومن قبل هذا وذاك مقطعات لها الصدارة فى هذا الباب ، وكان وصف المبرد لها صادقا . يقول فى باب الأساليب العربية :

« وما يستحسن لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيد ، وبعده من الاستعانة ، قول أبى حية :

رمتى وستر الله بينى وبينها عشية آرام الكناس رميم

فلو أنها لما رمتي رميتها ولكن عهدي بالفضال قديم
يرى الناس أني قد سلوت وإني لم رمى أحناء الضلوع سقيم
يقول: رمتي بطرفها وأصابني بمحاسنها، ولو كنت شاباً لرميت كما رمت،
وفتنت كما فتنت، ولكن قد تطاول عهدي بالشباب.

ثم يقول: «وما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره،
قول أعرابي:

فمن يك لم يعرض فاني وناقتي بحجر الى أهل الخي غرضان
هوى ناقتي خلني وقدامي الهوى وإني وإياهما مختلفان
تحن فتبدي ما بها من صباة وأخفي الذي لولا الأسي لقضائي

وبعد هذا بقليل آيات تصف الأمانى العذبة الروية، وأخرى لجميل تصف
الاحاظ وأثر العيون المراض في النفوس، وثالثة لأبي حية يعارض بها جميلاً،
وموازنة بينهما لأبي العباس، وفي هذه الفصول يمس المبرد مساً رقيقاً أناساً
لامسوا المحبين واتصلوا بهم، فمنهم من سافر بينهم، وكان مثلاً لظرف الحجاز
ونسكه، كإبن أبي عتيق، ومنهم من اكتسب بالعشق ورأه تمرأ يساط بسويق،
كأبي العتاهية الذي يصور لك مذهبه في الحب هذان البيتان:

رمتي بسهم الحب أما قذاده فتمر وأما نصله فسويق
ألا رب خود عينها من خزيرة وأنيابها الغر الحسان سويق

هذا عرض وجيز للغزل في كامل المبرد، وأنا أحسبه جاوز مختار أبي تمام
عدداً، وإن كان مختار أبي تمام يفضل لإحاطته بحل المعاني العربية في هذا الباب
على كثرتها وتعدد موضوعاتها. ومهما يكن فقد ذكر شعراء كثيرين واختار
لكل منهم من رائع شعره في الغزل: فإبن أبي ربيعة والعرجي والأحوص ونصيب
وابن الرقيات وابن حسان والراعي والثقفى وبشار وأبو نواس من الإباحين.

وجميل وكثير والمجنون وابن ذريح وذو الرمة وابن ثور وأضرابهم من
العذريين. وقد خص المبرد شاعرين من هؤلاء فأكثر من الاختيار لهما، وهما
إبن أبي ربيعة، وقيس بن معاذ.

وقد أحسن المبرد كل الإحسان في الاكثار لهذين : فعمر زعيم الإباحيين
بلا منازع ، عنه أخذوا ، وبه اقتدوا ، وطفقوا يعارضونه في أشعارهم ومجالس
لهوهم ؛ والمجنون إمام لمن أتى بعده من أرداء الهوى . وتبله الغرام ، فله عذره بل
توفيقه وإصابته .

هذا وقد بدا لي وأنا أجبل فكري في مختاره أمور أعرضها في هوادة ويسر
مع اعترافي بفضلته وأستاذيته .

منها أنه لم يختار إلا لشاعر إسلامي أموي ، أو عباسي على قلة ، فكأن
أبا العباس كان يرى أن الغزل لم يكن غرضاً مستقلاً إلا في عهد بني أمية ، فإن لم
يكن يراه فقد مهد باختياره الطريق للقائلين به . وفي الحق الذي لا يسع منصفاً
أن يبدى صفحته له ، أن هذه الكثرة لم يعدها الأدب العربي قبل الأمويين ،
بل لم تعهد في مكة والمدينة من قبل شعراء وهبوا أنفسهم للغزل ، وقضوا دهرهم
في قصف ومجون ، وعمرود بعيشة مفعمة باللهو والانقياد للشهوات .

ومنها أن المبرد كان يستغنى في الاختيار أحياناً ليرضى مذهبه النحوي ،
وإن نفر منها الذوق ، وأنكرها الأدب ؛ تراها في غير موضع من كتابه يطنب
في بيانها ويستطردها من أجلها . بل قد تكون القطعة طريفة في معناها ، سلسة
في أسلوبها ، فيعتمد المبرد إلى إيقاعها بهذه الترهات فتتوهم بها وتشوه من جمالها .
اقرأ قصيدة عمر :

من رسولى الى الثريا بأنى ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

لتعلم ما صنع فيها وحشد حولها من غناء النحويين . وفي الحق أن المبرد كان
وفياً بوعده إذ يقول : والنية أن نشرح ما وقع فيه من الإعراب شرحاً شافياً ،
وفي الحق أن الباحث لا يكون وفياً للبحث العلى إذا لم يقل إن مختار المبرد
في هذا الباب كثير منه من النوع المتوسط ، ونادر فيه الردى ندرة الجيد ،
وأن أبا العباس أهمل كثيراً من الشعراء المجيدين الذين توجوا الأدب بأكاليل

من روائع شعرهم في هذا الباب ، مؤثراً لشعراء خاملين : وقد يذكر شواهد من قصائد في الذروة العليا من النسب ويتغافل عنها ، في حين أنه قد يذكر قصائد لا تعد رأساً ولا ذنباً فيه ، من أجل تفسير كلمة غريبة نائية .

هذا وإنني أدلك على مقطعة من مختاره الجيد تماماً للبحث ، ووفاء بحق الأدب ، وأرسل على هامشها كلمة قصيرة تقوم مقام النثر لجليل معناها . قال قيس ابن معاذ :

ولم أر ليلتي بعد موقف ساعة يطن مني ترمي جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلي الفداء كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أيما تذهب به الريح يذهب

أسعده الزمان فلف شمله بليلى في منى حين كانت ترمي الجمار فتتلاعب بعقله حركاتها اللذيذة وأناملها المخضوبة ، فتراه مذهب العقل مشترك اللب ، وما هي إلا ساعة من نهار حتى فرق بينهم النفر ، فراحه ركايبهم مزومة ، فحدد إليهم الطرف ولا يستطيع الدنو منهم لأن حولهم أحراساً شداداً : فهو كالناظر إلى النجم دانيا لمغيب ، وكان متاع قليل من حبيب راحل ، أورث حزناً طويلاً ، ووكل به شقاء لازماً ، وأعقب حسرة لا تدفع ، ولوعة لا ترد ، وأبقى شيئاً يبيع الاسماع ما يمنع العيون .

إلا إنما غادرت يا أم مالك صدى أيما تذهب به الريح يذهب

هل ترى في هذا الكلام غريباً أو ساقطاً سوقياً يمجج سمعك وينبوعه ذوقك؟ ألسنت ترى له كونه بالقلب وعلقاً بالنفس ودركاً للحاجة ، مع القصد في المعنى واللفظ ؟ وهو إن أسرف في البيت الأخير فإن الهوى يخرج من حد الإسراف إلى حد الاستطراف ، ويجعله في باب النادر المفرد والبارع المستجاد . وما أجل هذه المبالغات بتولاهما مدح فيجيد حوكها فيكون لها موقع من القبول باهر ، ومنخل

وسأختم كلمتي بهذه الأبيات التي قالها المجنون حين نعى إليه أن ليلي يغدى
بها أو يراح :

كان القلب ليلة قبل يغدى بليلي العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد غلق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر فعشما تصفقه الرياح
فلا في الليل نالت ما ترجى ولا بالصبح كان لها يراح
تلك التي أطلقت لسان المبرد بأنها أبلغ ما قيل في خفقان القلب ، وأنها غاية
الوصف بالاضطراب . وكيف لا تكون ؟ أليس قلبه كقطاة أنزلها الدهر على حكمه
من طلاقة وأمن ، إلى شرك غلبها وأمكنه منها قدر متاح فباتت تكابد وتسمى
جهدا في الخلاص ، وقد عز الخلاص حين حم القضاء فغلق الجناح ؟ وبما زاد
في حزنها وأهاب بهمومها تركها فرخين بمهب الرياح قد افتقدا الكاسب وعجزا
عن النهوض .

أسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويشعرها جلال الألفة وجمال المحبة ؛
محبة الفضائل ورياضة النفوس عليها وإيثار الباقيات الصالحات ؛ محبة تنام فيها
الأهواء ، وتتحسم بها الأدواء ، وتقطع العلل والمعاذير ، ولا تبقى إلا النفوس
بريئة من أضغانها ، سالكة سبل ربها ، في إيمان وأمن ورضى ، حتى تلقاه
راضية مرضية .

استعطاف بليغ

قال العتيبي : أمر عبد الملك بن مروان بقطع مرتبات آل أبي سفيان
وجوائزهم ، لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .
فدخل عليه عمرو بن عتبة فقال : يا أمير المؤمنين إن أدنى حقك متعب ،
وبعضه قاذح لنا ، ولنا مع حقك علينا حق عليك باكرام سلفنا لسلفك . فانظر
إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم ، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك .

مقارنة بين القوانين الوضعية والشرعية الإسلامية الغراء

انحلال الزواج

لحضرة الأستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

الأصل أن الزواج ينحل بوفاة أحد الزوجين ، وقد ينحل أيضا بالطلاق .
وسنعرض لهذا الأخير في أهم القوانين القديمة والحديثة . وأما الغيبة فلا تحل
الزواج مهما طال مدتھا .

القانون الروماني : ينحل الزواج في القانون الروماني بموت أحد الزوجين
أو بفقد الحرية أو الحقوق المدنية : إذ الزواج القانوني كان معتبراً من الحقوق
المدنية التي لا يتمتع بها إلا المواطن الروماني ، كما أن الزواج كان ينحل أيضا
بالطلاق . ويلاحظ أن الزواج بلا سلطة كان ينحل كانحلال الزواج بالسلطة .
وطريقة ذلك كانت على عكس الشروط المكونة للزواج : فبما أن الزواج عقد يتم
بالتراضي فكذلك الطلاق أي يحصل بالرضا المتبادل . وبجانب هذه الطريقة
كانت توجد طريقة أخرى خاصة بالزواج بلا سلطة ، وهي أن يهجر أحد الزوجين
زوجه *Répudiation* ويتخلى عنه . وعلة ذلك أن الزواج كان من الحقوق الخاصة .
والثابت تاريخياً أن الدولة كانت لا تتدخل في مسألة انحلال الزواج : وبناء
على ذلك كانت لا توجد حدود للطلاق ، فكان ذلك سبباً لشيوعه وانتشاره
في أواخر عصر الجمهورية وأوائل الإمبراطورية ، حتى لقد وصل الحال بالنساء
أن يحسبن سفين بعدد طلاقهن . وقد ترتب على انتشار الطلاق مساوياً اجتماعية
وساعد على قلة النسل . وكان الطلاق يحصل بإقرار شفوي أمام سبعة شهود .

وفي القرن الثاني وجد نظام الهجران أو التخلي بطريق إعلان من الزوج
لزوجته ، ولم يوجد تشريع للطلاق إلا في عصر الإمبراطورية المسيحية التي حاولت

القضاء على الطلاق ولكن بدون أن تقرر مبدأ لذلك ، ويعتبر أول تدخل للدولة في شؤون الطلاق هو ما قام به ديكايانوس (ولم يكن مسيحياً) حيث قرر بأنه في حالة عدم كفاءة الزوجين أو في حالة وجود نزاع بينهما فإن القاضي يقرر لمن تكون له حضانة الأولاد .

وظهر بوضوح في عهد قسطنطين المسيحي الاتجاه نحو الحد من الطلاق ، كما لا يجوز الهجران إلا في أحوال معينة . وأكثر ما كان يقع ذلك كان من جانب الزوج ، ولكن المرأة يجوز لها أن تهجر زوجها إذا ارتكب جريمة قتل أو تسميم أو انتهك حرمة القبور . وكانت توجد عقوبات في غير هذه الأحوال .

أنواع الطلاق في عصر جوستيان :

يمتاز هذا العصر بتشريع غريب لمادة الطلاق ، وقد حصره في أربعة أحوال :

- (١) طلاق بالتراضي ، وكان قد قرره ثم ألغاه ثم قرره جوستيان الثاني .
- (٢) طلاق لأسباب شرعية كعجز الزوج عن إتيان زوجته عجزاً نهائياً ، أو لعقم الزوجة ، ويعتبر هذا الطلاق هجراناً . (٣) طلاق في معنى الهجران ويعتبر عقاباً لأحد الزوجين الذي ارتكب خطأ نحو زوجه الآخر . (٤) طلاق بلا سبب شرعي وهو هجران لا يستند على سبب شرعي ، ومع ذلك فإنه يقع صحيحاً ويترتب عليه عقاب الذي وقع منه الهجران .

عقوبات الطلاق :

كانت هذه العقوبات في عصر جوستيان وهي : (أ) عقوبة توقع على المخطيء من أحد الزوجين الذي حصل بسببه الطلاق (ب) عقوبة ضد الزوج الذي طلق بلا سبب . والعقوبات على نوعين : مالية وجسمانية ، تختلف على حسب الظروف والأحوال ، كالاعتقال مؤبداً في أحد الأديرة .

القانون الجرمانى :

بدأ القانون الجرمانى من حالة قديمة جدا حيث كان الزوج وحده هو الذي له حق هجران زوجته ، ويظهر أن استعمال هذا الحق ما كان يستند على سبب بل على مجرد رغبة الزوج . ولكن فيما بعد خففت حدة هذا الحق ، وذلك بسبب الخوف من التعرض للانتقام من أقارب الزوجة إذا هجرها الزوج بلا سبب

كالزنا مثلاً . ثم أخذ الطلاق بالتراضى يحتل مكانه فى القوانين الجرمانية التى وقعت تحت تأثير النفوذ الرومانى ، وذلك بجانب طلاق الهجران الذى يحصل من الزوج إذا كان هذا يستند على سبب صحيح . ولكن الواقع أن الزوجة كان لها أيضاً هذا الحق أى لها حق هجران زوجها . ويبدو أن عدم المساواة بين الزوجين فى هذا الحق لم يندثر بعد حيث إن الزوجة التى كانت تهجر زوجها بلا سبب كانت تعرض للعقوبات الجسدية . بينما أن الزوج لا يتعرض لمثل هذه العقوبات وإنما توقع عليه عقوبات مالية . ويتضح أنه وإن كان الجارى عليه العمل فى إثبات الطلاق هو الكتابة إلا أنه يظهر أن هذا الشكل ليس ضرورياً حيث كانت توجد أشكال أخرى غير الكتابة .

القانون الكهنى :

فى وقت ظهور المسيح كان غير منتظر أن تنتشر المسيحية فى أنحاء العالم القديم (اليهود والاعريق والرومان) .

ويلاحظ أن الطلاق كان يعارض مع هذا الدين الجديد ، وقد كان من المنتظر أن يقضى هذا الدين على الطلاق حيث أن الانجيل وحوارى المسيح يرون الطلاق أمراً غير مقبول وغير مرغوب فيه . وكانوا ينادون بمبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال ، فيجب على الزوجين أن يتصالحا ويتسامحا عن الجرم المرتكب لأن مبدأ الاحسان يجبرهما على عدم الانفصال بلا عودة . وأحد الأسس الذى يستند عليه هذا المبدأ هو ما ورد فى عبارة القديس ماتيوس (٥ / ٥١ / ٣٢) وكانت موضوع نقاش وجدل بقطع النظر عن مسألة الهجران بسبب الزنا . والرأى الغالب بين رجال الكنيسة هو أن الطلاق (حتى فى حالة الزنا) محرم ، فيجب على الزوج إعادة زوجته الخاطئة متى ندمت وتابت عن ذنبها . ولكن للزوج الحق بل واجب عليه أن يبتعد عن التى تصر على خطئها ، كما أنه ليس له الحق فى الزواج . وقد فاز وانتصر هذا المبدأ بواسطة القديس أوغستين الذى ربطه بالفكرة القائلة بأن الزواج رباط دينى وصورة لاتحاد المسيح بالكنيسة ، فلا يقبل الانحلال لعدم قابلية اتحاد المسيح بالكنيسة للانحلال ، وكان هذا عقيدة سائدة .

وقد انتصر هذا المبدأ فى الكنيسة منذ القارة (إفريقيا)

السابقات إلى الاسلام :

رسول النساء الى الرسول

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

مدرس بمعهد القاهرة

طابت نفوس أهل (المدينة) بهجرة الرسول اليهم ، وبات الإيمان يعمر قلوب
الانصار والمهاجرين ، وجعل الرجال والنساء يتدارسون القرآن ويتفهمون ما نزل
منه ، ويتبعون ما يأمر به النبي ، ويوحى بعضهم الى بعض ، ما تلقاه بين يدي
رسول الله ، وما سمعه من صحابته ، وما عرفه من الدين وقواعده وأوامره ونواهيه .
وكانت نساء الانصار يتشوقن في لطفة الى استماع القرآن ، وتبصر واجههن ،
وما شرع لهن ، وما يقربهن الى الله ولقي

وكان كل رجل يعود الى بيته بعد أن يحضر مجلس الرسول ، وقد وعى ما ينصح
به أهله ، وما يزكي روح بيته وعشيرته من أخت أو أم أو زوج .

وكانت في (المدينة) مثابة الإسلام بعد الهجرة (فتاة) في ريعان شبابها
ومقبل عمرها ، يزينا جمالها ، ويعلو بها عقلها . لها بين لدااتها منزلة بفضل فصاحتها
وسعة إدراكها ، وشدة تلهفها على المعرفة والوقوف جاهدة على ما ينادي به الرسول
وما يدعو اليه الإسلام ، من كل ما يهم المسلم والمسلمة ، والانصارية والمهاجرة .

وكانت كلما تلقت من أدب الدين شيئاً ، زادها إيماناً ورغبة في أن تقتني آثار
ما يوحى ، وما يتنزل من السماء . . .

وتريد أن تشارك الرجال في السبق الى المعرفة ، ولكن حياء المرأة وطبيعتها
وبعدها عن مجالس الصحابة إذا تحلقوا حول الرسول ، كل ذلك كان يقلقها ، فتم
بزميلاتها وتطلب عندهن حاجتها من العلم والمعرفة فلا تجد إلا بمقدار . ولأنها

لتخشى أن تكون درجة النساء في الجهاد منقصة تقهر المرأة إلى مرة عند الله
أقل من الرجل المجاهد في سبيل الله .

لقد بايعت الرسول مع من بايعن من النساء حين هاجر إلى المدينة ، وأسليت
لله وأخلصت لدينه القوى المتين . ولكنها ترى الرجال يجاهدون في سبيل الله
ويعتازون بصلاة الجماعة واجتمع والأعياد .

طال بها التفكير ، وهداها عقلها إلى أن ترجع إلى رسول الله .

ولكن كيف السبيل ؟ أتذهب إلى نساء النبي وتسأل إحداهن ؟ ... لا شفاء
لنفسها إلا إذا قابلت رسول الله . وإنه ليجلس بين أصحابه كلما دعا أمر ، أو نزل
وحى . أو استراح بهم الجهاد ، أو قضيت الصلاة .

طال بها التفكير ، وأخيرا غلب على حياتها شدة إيمانها وشوقها إلى معرفة
مكان المرأة وحظها من الجهاد وأجرها على ما تقدم في حياتها من كفاح مع
السابقين إلى الإسلام .

كاد يشق قلب شوقها غير من حرمان المرأة حمل السلاح وحضور
الجنائز والحج بعد الحج . وتخيأت أن يكون في تلك الميزات ما يحرم المرأة
من الفضل ، وما يخلف قدرها في أجر الآخرة ، إذا فتحت أبواب الجنة للسابقين
الداخلين في دين الله أفواجا .

وأخيرا لم تجد بدا من الذهاب إلى رسول الله . وما أن علمت أنه أخذ مجلسه
بين صحابته يزكيهم ويعلمهم الكتاب ويرشدهم ، حتى انطلقت تدفعها الرغبة ويحفها
الحياء ويحوطها الأدب .

راحت (أسماء بنت يزيد الأنصارية) تنصب في سيرها العاجل وخطواتها
المؤملة ، وأنفاسها المتلهفة ، وتفكيرها الدائر حول ما تسأل فيه الرسول ، وماذا
تعود به إلى نساء المدينة من قول تزفه بشرى إلى النساء المسلمات ، ليكون حديثاً
يروى ، وأثرا يذكر ، وأدبا يحتذى ، ودستورا يقتدى به ، وتقف المرأة عند حدوده
طيبة النفس ، مستريحة الخاطر ، آمنة على أملها في الجنة ، وحظها فيما أعد الله للمتقين
من جنات عرضها السموات والأرض .

نعم : مضت (أسماء الأنصارية) إلى مجلس تحف به الهيبة . وهناك قالت :
« يا رسول الله بأبي أنت وأمي ! أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل
بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمنّا بك ويأهلك . »

« إنا معشر النساء محصوراتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قواعِدُ في بيوتكم ، وحاملاتُ
أولادكم ؛ وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعة وعبادة المرضى وشهود
الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهادُ في سبيل الله .
« وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا ، حفظنا لكم أموالكم ،
وعَزَلنا أثوابكم ، ورَبِينا لكم أولادكم ، أَفَنُشَارِكُكُمْ في الأجر والخير ؟ . »



كأني بها قد صمتت في أدب وانتظار لما يوجه الرسول . وكأني بالصحابة
يعجبون من ذِلاقة لسانها . وكأني بها تَنَفَّست عن راحة بالها حين سألت عن
كل ما يشغلها ويثقل صدرها .

وهنا التفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال :

« هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟
فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا . »

والتفت النبي إليها وقال : « أفهمي أيتها المرأة وأعلى من خلقتك من النساء أن
'حَسَنَ تَبَعْلُ المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يَعْدِلُ ذلك كله ،
وتبعل المرأة لزوجها : إطاعتها له ، وحسن أدبها معه ، وقيامها بحقه . »

عادت أسماء من عند رسول الله إلى نساء المدينة ، والفرح يملأ جوانحها ، وإنها
لتتوسط حلقات زميلاتها وتفصح عن لقاءها للنبي وإنها لتروى ما سمعت منه
وقت وفادتها ، وحسن استماعه لها ، ورقة جوابه ، ورأفته بها وبمعشر النساء جميعا .
لقد سمرت عند الرسول تبغى بيان أجرهن على جهادهن ، فعلت أن جهاد
المرأة « هو رعاية زوجها ، ولها أجر المجاهدين في سبيل الله . ومن يوم هذه
السفارة عرفنا خطبة الرسول للنساء إلى الرسول . »

وأصبحت (أسماء) مرجع نساء قومها، يدبرن رأيا، ويتبعن ما يصح به،
وأضحت مرجع كثير من التابعين يرذّن من أفصاحها وفضل أدبها ما شاء الله
وشاءت لها غيرتها على حقوق المسلمات وتثقيف المسلمين.

إنها أسماء، وكما في الصحايات من مثل تستطيع المرأة أن تقتدى بهداها،
وتعرف الهدف الذي حدد لها من أول مطلع التشريع والتوجيه.

إن جهاد المرأة في منزلها هو الجهاد الأكبر؛ لأنها تحمل نفسها على الصبر،
وتدفعها إلى العمل في سبيل الأسرة، وتردها عن الميل إلى الخروج على طبيعة
ما أعدت له وأعد لها الأجر من ورائه.

ومما يدل على قيمة جهاد المرأة في بيتها، ويؤكد ما وعد به رسول الله، قوله
إلى أحد الرجال، وقد جاء يوما إلى مجلس النبي، فقال:

«يا رسول الله: إن لي امرأة إذا أتيت مهموماً قامت إلى فأخذت بطرف
ردائي ومسحت على وجهي وقالت: إن كان همك للدنيا فصرفه الله عنك، وإن
كان همك للآخرة فزادك الله هما».

فقال الرسول: «إن لها أجر الشهداء ورزقهم».

تلك هي بعض مواقف المرأة، وبعض ما أعد لها من أجر الله، وما أثارته
وافدة النساء.

وليس معنى ذلك أنها لا تشترك في الجهاد والمحارب إن دعت الظروف وقضت
المواقف، بل إن رسالتها الكبرى في المنزل قد تسمح لها بأن تشترك في مد
الجيوش المحاربة بما تستطيع من مال وجهد وعمل في حد طاقتها.

ولا أصدق على ذلك من موقف أسماء الصحابية هذه. فلقد عاشت طويلا
بعسد الرسول وأدركت موقعة (اليرموك) بين المسلمين والروم، ولما التحم
الجيشان كانت تقوم على إسعاف الجرحى وإمداد المحاربين بالماء، ولما حمى
وطيس الحرب تناولت عمود خيمتها وتقدمت إلى صفوف المحاربين وجعلت
تضرب حتى قتلت تسعة من المحاربين من جنود الروم أعداء المسلمين.

وتلك القوة من فضل الإيمان في نفوس السابقات إلى الإسلام.

أساليب العيش

بين الأدب والدين

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الحشب

المدرس بالأزهر

—

كان فيما تناقل الناس جيلا بعد جيل ، وقيلا بعد قبيلا ، أن الضرورة تبيح المحظورة ، وأن طالب القوت ما تعدى . لذلك فهم يرون في سبيل سدّ العوز ، ودفع الفاقة ، والابقاء على الحوباء ، أن يحتال الانسان صنوف الخيل ، ويسلك أعنف الطرق ، لئلا يمنع ما عساه أن يودي بنفسه جوعا ، أو يختر بها صرعى في ميدان تنازع البقاء .

مركز تحقيق كتب التراث

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا !
وقد عيب على الحريرى هذا اللون من الأدب الذى كان أشبه الأشياء بالكدية والاستجداء : لأن الناشئ لا يأخذ عنه إلا ضعفا وخضوعا ، وذلة وخنوعا ، إذ ينتهى منه إلى مثل قوله :

ليست الخبيصة أبغى الخبيصة وأنشبت شصى فى كل شيصه
وصيرت وعظى أحبولة أربع القنيص به والقنيصه
وأجأنى الدهر حتى ولجت بلطف احتيالى على الليث عيصه

وربما كان أشد اعتدالا ، وأكثر إنصافا ، من يرى أن يتخير الرجل مرأى رحله ، ومواطن سفره ، ومواضع تسأله ، فلا يرجو ما هب ودب ، ولا يقصد كل حاف ومنتعل ، وإنما يعتام مواقع الغيث ، ومنابت الكلاء .

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للتكريم الفضل

ما اعتاض بأذل وجهه بسؤاله عوضا ولو قال الغنى بسؤال

ولم تكن هذه سيئة عصر خاص ، ولا جريرة بيئة خاصة ، ولكنها تركة الضعف الخلقى الذى يتوارثه بناء السوء عن الآباء اللئام . . . ثم هى إلى جانب هذا جناية الأدب الرخيص فى شعر ، المديح ، الذى يوبناه فى أبواب ، ونسقاء فى صحائف ، تأديبا لأحفادنا ، وفلذات أكبادنا . وكنا نود أن يجاروا الممدوح فى عطائه ، والكريم فى سخائه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى ، إلا أنهم جاروا السائل فى صياغة المدائح ، وصفاقة الصفائح ، وبالغوا فى المقصود ، كأنه المعبود .

وما رأيت - فيما رأيت - من هذا الطراز من الشعر ما يحتفظ فيه القائل بماء وجهه ، أو يرفع بكرامته ، اللهم إلا فى أبيات لبشار بن برد يوجهها إلى أحد البرامكة ، زاعما له أنه لا يسأله عن ذلة ، ولا يقصده عن صغار ، بل هى ضرورة تبادل المنافع ، قضت أن يكون بذل فى مقابل بذل ، وعطاء ثمنا لعطاء :

أخالد لم أخبط اليك بدمه سوى أننى عاف وأنت جواد

فإن تعطينى أفرغ عليك مداعنى وإن تاب لم يضرب على سداد

ركابى على حشرف وقلبي مشيع ومالى بأرض الباخلين بلاد

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

وللدين الإسلامى أدب أفضل من هذا الأدب وأسمى منه لأنه قام على مبدأ ، ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا ، وهذا التكريم فى نظره يقوم على أساس ألا يكون الإنسان عبدا لغير الله . وألا تصل به الحاجة والفقر إلى درجة أن يجعل وجهه فى مواطئ الأقدام ، والناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وإذا كان سبحانه قد فضل قوما على قوم فى الرزق ، ففى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولو أن هذا الحق بذل عن طوعية واختيار ، لما كان هنالك سائل ولا محروم ، وقائل الله الشح :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

ومع هذا فإنه لم يكل الفقير إلى حقوق غنى الأغنياء، ولكنه حث على السعى،
ورغب في الزهادة، وكره أن يعيش المرء عالة على أخيه، وعلينا أن نطرق أبواب
الرزق من أفضل العبادات، وأحسن القرب. على أنه مما استقر في الطبائع أن
الحاجة ما دخلت في مودة إلا أفسدتها، ولا معاشرة إلا أغصنها، ولا جماعة
إلا فرقها :

إن من أحوجك الدهر إليه وتعلقت به هنت عليه
ليس يصفو ود من آخيته إن تطلعت لشيء في يديه

وقد جاء في الحديث «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع خير له من أن
يسأل الناس أعطوه أم منعوه»، وهو لا يقصد - بالطبع - التخصيص على
الاحتطاب خاصة، وإنما هو أسلوب من أساليب العيش الشريف، والحياة المحترمة.
وهيات أن يولى المسلم وجهه إلى عمل من الأعمال قاصداً الكفاف، ودفع
المسغبة معتمداً على المولى جل جلاله، ثم يخيب مسعاه، أو لا يتحقق رجاءه،
وقوله صلى الله عليه وسلم «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق
الطير تغدو خماساً وتروح بظانا، يرسم صورة واضحة للأعمال المقرونة بنجاح
المسعى، وبلوغ الغاية، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور».

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها بحالا
ولم تقل براحتها بنينا ولكن ساقوا الموت اقتالا
ولو زاد الحياة الناس سعياً وإخلاصاً لزادتهم جمالا

نعم هو زحام السوء ضيق رفعتها مع اتساعها، وصيرها كأحبولة الصياد
في نظر طلاب الآقوات، ورواد الرزق، وهكذا :

لو أنصف الناس استراح القاضى وبات كل عن أخيه راضى

وقد تذبذب بنا الزمن إلى درجة أن أصبح فينا من يقول : «لو أنصف
القاضى...»، والواقع أنها عيوب اجتماعية يحمل أوزارها الكبار والصغار.

عيد الانسانية

لفضيلة الاستاذ الالمعى الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بالأزهر

يوم الميلاد النبوى الكريم، عيد الإسلام والسلام، عيد الإنسانية والحضارة،
عيد الحق والحرية، والإخاء والمساواة .

يوم خالد فى تاريخ البشرية الرهيب : كان فاصلا بين النور والظلام ،
والفوضى والنظام ، والحرب والسلام ، والشقاق والوئام : كان فارقا بين حياتين :
حياة الاستعباد ، والحرية : وحداً بين عهدين : عهدى الوحشية ، والمدنية .

ولد محمد صلوات الله عليه ، فولد معه النور والهدى ، والحق والخير ، والرحمة
والإيثار ، والفضيلة والشرف ، والعزة والكرامة .

وما أظن الدين يعترف بماتسمية نحن مصالحة أو مداراة ، ويسميه قانون
الأخلاق تضائلا ونزولا . على أنك تعذر من تلجئه الضرورة ، وتسوقه الحاجة .
أما هؤلاء الذين ليسوا بحاجة إلى هذا كله فما عذرهم أمام الله والتاريخ ؟ أعذرهم
أن فى ذلك الرقى والجاء ، والتقدم والعلو ، والغنى واليسار ، والتمكين لدى الرؤساء
أو المسئولين ؟ وهو على حد قول القائل :

ما يحرز المرء من أطرافه طرفا إلا تخونه النقصان من طرف !
والسكال بالأخلاق لا بالأرزاق ، وبالأدب لا بالحسب والنسب . وخير
ما يكون المؤمن أن يكون كما قال القرآن ، لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما آتاكم ، والبطولة لم تكن إلا فى الرجولة :

والرجل الضرب من تساوى فى نفسه الصعب والزلول
فهو إذا انحط أو تعالى لا آتية منه ولا الخمول
كالسيف لا زينه التحلى يوما ، ولا عيبه الفلول !

وشبّه محمد صلى الله عليه وسلم مفطوراً على أسمى الفضائل والمواهب والأخلاق، التي تعتبر تراثاً خالداً تعزّز به الإنسانية ويفشده الناس.

وبعث محمد إلى الناس كافة، فجعل الرسالة، وأذى الأمانة، ونشر السلام. وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وقضى على من كانوا يعملون جاهدين ليطفئوا نور الله ودين الله.

ومات صلى الله عليه وسلم بعد أن ترك وراءه ديناً عاماً آمن به العالم، وكتابتها سماوياً رددته الأجيال والقرون، ودولة خضع لها الشرق والغرب، تأتمر بأمر الله، وتسير على حدود الله، وتؤمن بدين الله، وكتابه الحكيم، ورسوله العظيم.

محمد صلوات الله عليه نشيد الإنسانية الخالد، وأمل الحضارة الباسم، وأوّل داع إلى أعظم دين، وأنبل مُثُل، وأكرم غايات، وأسمى أهداف.

محمد صلوات الله عليه هو نبي الإسلام، ورسول السلام، وأعظم إنسان تعزّز به الحياة والناس، في شتى العصور.

محمد صلوات الله عليه هو أملنا في الماضي والحاضر والمستقبل، وقدوتنا في الحق والإصلاح والخير، ومثلنا الأعلى في كل ميدان، وكل فكرة أو عمل.

يا رسول الله! بارك خطوات أمتك الإسلامية في الدفاع عن حرياتنا وعزّمتها وكرامتها: وبارك ملاذ الشرق والعروبة والإسلام: فاروق المعظم، حفظه الله. وبارك هذا المعهد الإسلامي العظيم: الأزهر، الذي يعمل لنشر دينك، وإحياء سنتك: وبارك هذا العهد الجديد السعيد، في تاريخ الأزهر والإسلام، عهد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الإمام الشيخ محمد مأمون الشناوي: أيده الله، في ظل الفاروق المحبوب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الايان بما فوق الطبيعة

أساس لبقاء النوع الإنسانى وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية فى القرن الماضى فى نشر أصولها . معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساتير القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى فضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكلا عليا وعمليا يؤدي الإنسانية إلى عهدها الذهبى المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشيع هذه الفلسفة جهد الجبارة فى نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التى تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة فى شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثليها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك فى بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التى بُذلت ، انتشار روح التمرد فى الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال فى جمع الثروات ، وإنفاقها فى اللهو والقصف ، والتفنن فى ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما فى حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالاً وبلا على المجتمعات المتقدمة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مُثلاً عليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم يزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى فى إنتاجه ، ولكن هذا

التأثير يظهر في تدهور الآداب العامة ، وفي ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الرُّبُط في بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التي يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب في القرنين الأخيرين فليست في حاجة إلى بيان أطواره : فقد أصبح كل ما كان يعتقده الناس إفراطا أو تفريطا ، أو تجاوزا للحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوسوس العتيقة . ففي البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستسلمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون ببقية من الغيرة أرادوا أن يحدوا من حرية زوجاتهم تحقيقا لمبدأ القوامه الفطرية عليهن ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال . وكان خذلانهم بعاملين : أحدهما تسمُّمهم بالمبادئ المادية ، وثانيهما سيادة الروح الإباحية في الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط : فكيف في بيئة مثل هذه أن تحمل النابتة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها في بيئة هي مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئا ثقيلا على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهى الأسباب : فبينما يكون دولا ب الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب في بعض فقام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم في جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يحدون خبزا يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مساوفهم ، وتحمل تجارتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الاضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الأحوال ، وسقوط الوزارات : وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، وإنما تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشرى إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الانسانية من هذا كله موت عاطفة التراحم بين الجماعات المختلفة ، والذهاب في الخصومات الى أبعد حدود القسوة والغشمية ؛ فالأمم المتجاورة المتوحدة في ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف في سياساتها ومطامعها ، فبدلا من أن تعمل على تقريب وجهتي نظرها ، وتجهدا في وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما ، تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها ، فلا تجد المتوترة منهما إلا اللجوء الى القوة في الحصول على رغبتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشية ، فهي تناحر لا يصح وقوعه بين الأمم التي تعقل اليوم نتائجها من الحراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التي تمت الى كل من المتخاصمين بسبب ، فتقلب الى مجزرة عامة بين أمم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لاهلاك بعضها بعضا .

حدث كل هذا في كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تكن وسائل الاقتناع مغنية . وبقى إلى اليوم وفي العالم محكمة دولية للعدل ! وفي هذا دليل محسوس على أن الأمم بعد أن بلغت هذه الغايات البعيدة من فهم الحقوق الطبيعية ، وذوقت ثمرات السلام في النواحي العلمية والمدنية ، لا تزال تغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهي تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الانساني ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المادية ، لأنه يتماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الاصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما اقتننت به العقول من أمثال هذه الكلمات الفارغة التي لو بقيت ، لأدت النوع البشري إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الانساني في أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارىء بأن النوع الانساني ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علما ورقيا إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدبي يحد من نزعة الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلائم ما متع به من روح علوى ينزع به إلى السمو والخلق ، والرقى الأدبي ، والترفع عن التوحش الحيواني . هذا العامل الأدبي هو ما حمله الدين إليه من الاعتقاد بعالم ما فوق الطبيعة . والذي يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الانسان

قد أدرك وجود هذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض . ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعورا به وشوقا إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الانسان أطلق العنان لخيالاته في إدراكه لذلك العالم ، فترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانية ، وشؤون علوية ، إلا ألحقه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا : ولكنها اتفقت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمادة للقوى التى تدبرها .

ولما اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه أمثلا العليا وغاياتها البعيدة .

وجاءت الأديان فأيدت الشعور الفطرى به لدى الانسان ، وأزالت عنه ما ألحقته به طفولة الأمم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومنتزلة قدرته التى تمتد الكائنات بمسيرها ويكملها ، ومشوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالتفوس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشيم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرهق من مغالبة حوادثها ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادئ العليا لمعالجة العوادم التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبالى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق الى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفوس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الانسانية ، وللعنت الذى يصيب الانسان فيها معنى ساميا ، وعاقبة معقولة ، ويحمله على ملازمة الخلال النبيلة ، والمبادئ القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فانه إذا تجهمت له الحياة فكر في ارتكاب الجرائم ، واقترب المآثم ، ولم يبال بشيء غير نفسه ؛ فإذا عمت

هذه الحماية حتى صارت عقيدة لامة ، فانها تتجه إلى طريق الشر ، فلا تحترم عهدا ، ولا تلتزم ميثاقا ، فاذا قاتلت وانتصرت ، نشرت الرعب في النفوس ، وأشاعت الظلم في الأحكام ، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات ، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلين .

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادي ، واعتقته الأمم ، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الانسانية ، فإن تلك الأمم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل ، وينتهي العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبني نوعه .

ولقد كانت المبادئ الإلحادية قد قويت شوكتها في القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حربين عالميتين ، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية ، ولا العدالة العرفية ، فضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مباليين إن كانوا يقتلون بها جنودا في خطوط النار ، أم الأسر الوادعة المكتظة بالنساء والولدان ، والمهرمى والزمنى منهم ، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المسادى الذي أفاده العلم للناس ، ولم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية في مثل هذه الأدوار الحرجة .

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كالقنابل الذرية ، وحدثت حرب جديدة ، لتراشق بها الخصوم ، وإذا ذاك تصوح زهرة المدنية ، ويخبو نورها ، وترتكس الجماعات البشرية إلى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى .

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطبيعي لا أثر له في تهذيب النفس الإنسانية ، ورفع كابوس الوحشية عنها ، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس في مقابلاتهم ومعاملاتهم ، وقلوبهم من الإنسانية الفاضلة ، والكمالات الخلقية هواء .

هنا يعترض علينا معترض فيقول : إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة في نفوس المتمدنين ، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة في العلوم الطبيعية ، صحيح لا يمكن التمازى فيه ، ولكن تاريخ الجماعات في أشد أدوار حماسها الدينية لم تخل

من قساوات أسوأ مظهرأ ، وأفظع مخبرأ مما ذكرت . ألم يذبخوا مخالفهم في الدين ذبح الأغنام ، ألم يلقوهم جماعات في النيران ، ألم يرموا بهم من شواحق الجبال . لا لشيء غير أنهم لا يديون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟ .

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجسانين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبلغ الجماعات الى المثل العليا من الكمال الصحيح ، دون أن تستضيء عقولها بأنوار المعارف الكونية . وتشبع نفوسها بحكمة الدين الحق : لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : « وقل رب زدني علماً » ، حتى أنه حصر كمال العلم بالله والوقوف عند حدوده في العلماء ، فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . ودعا النبي صلى الله عليه وسلم الى طلب العلم ، وحث عليه في أقوال أثرت عنه تعتبر مثلاً علياً في التحضيض عليه : من ذلك قوله : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء . فيرجح عليها » وقوله : « لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة » وقوله : « اطلب العلم ولو بالطين » .

فالجاهل إذا تدين ولم يجد من تربيته البيّنة ، ولا من ثقافته الحكّمية . رادعا يردعه عن الشطط ، تخيل أن في التكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم . وسائل تحظية من الله بأجزل المشوبات .

ومن الأمثلة التي نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالاً دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : هل يقتلونهم إذا صادفوهم في كتائب الأعداء ؟ فنهاهم عن ذلك احتراماً لحرمة الأبوة . بل نهاهم أن يقتلوا من أعدائهم الطاعين في السن ، والمصابين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين . فاتفق أن أحد أصحاب النبي قتل مستسلماً ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال له : « إني أبرأ الى الله من عملك » فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفادياً من القتل . فأجابه النبي : وهل كشفت عن قلبه ؟ إنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين
مقترنا بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم فى آخر أدوار
الإنسانية جاء الاسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكافلين ،
وضرب أهله فى الأرض متشبعين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه .
ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم : « خذوا
الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » ، وخذ الحكمة ولو من مشرك ، فاستقدموا
العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليهم الأرزاق
بسخاء لم يسمع بمثله فى أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا
عليها درسا ونقدا ، وتحريرا وتقريراً ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها
زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ الى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية
أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ،
ولبادوا كما بادت الأمم المنعسفة قبلهم . ولما بق لهم ولدينهم الأثر الذى بق الى
اليوم وسبق على الدهر . *مركز تحقيق كتب التراث*

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من
دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا . وقد بدت بوادره فى الأفق :
فلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الاسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا الى هذا المدى ، فالذى بق أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت
مهدة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم
الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البدات المحسوسة . على
شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيمانا راسخا بما فوق الطبيعة ،
وبيقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكاً لمرتاب ، ولا حجة لمتردد :
« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » .

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال :
يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدني قتال
المشركين ليسرني الله ما أصنع . فلما كان يومُ أحدٍ وانكشف المسلمون . قال :
اللهم إني أعوذُ إليك بما صنع هؤلاء — يعني أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء
— يعني المشركين — ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعدُ بن معاذ : الجنة ،
و رب النضر ! إني أجد ريحها من دوق أحد . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله
ما صنع . قال أنس : فوجدناه به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ،
أو رمية بسهم ؛ ووجدناه قد قُتل ، وقد مُثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا
أخته بناته . قال أنس : كنا نرى — أو نظن — أن هذه الآية نزلت فيه وفي
أشباهه من المؤمنين « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » إلى آخر الآية : وقال :
إن أخته — وهي تسمى الربييع — كسرت ثنية امرأة ، فأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالقصاص : فقال أنس : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا تكسر
ثنيتهما ، فرفضوا بالأرث وتركوا القصاص . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » رواه الشيخان .

البنان : الأصابع ، وقيل أطرافها ، وهي الأنامل . واحدها بنانة . والثنية :
واحدة ثايبا الفم ، وهن أربع في مقدمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل .
وأرث الجراحات : ديتها ، وجمعه أروث . وإبرار القسم : تصديقه وعدم تخنيته .

إذا صح للأمم الحديثة أن تفخر بما تسميه في نظام جنديتها بالكتاب
 الفدائية ، أو فرق الموت ، فإن الإسلام أولى بذلك منهم وأحق . ونبادر بأنا
 لا نذكر هذه النظم الحديثة بجانب النظم الإسلامية ، إلا كما نذكر الشقاء بجانب
 السعادة ، والضلالة بجانب الهداية ، والموت بجانب الحياة ؛ والضد كما يقول علماء
 النفس أقرب خطورا بالبال إلى ضده . وإلا فأين من يلقي بيده إلى التهلكة
 في سبيل الاستعمار والغلب والجشع ، واستلاب الأموال والأعراض ، والبطش
 بالضعفاء والمساكين — ممن يرحب بالموت في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وإحقاق
 الحق ونصرتة ؟ وأين من يقذف بحجمه طعمة للحرب على غرة ، انتصارا لعقيدة
 آثمة ، أو إجابة لثورة جامحة — ممن يبذل نفسه مطمئنة راضية ، ابتغاء مرضاة
 ربه ، وشوقا إلى نعيمه وقربه ؟ ، للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له
 لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لا فتدوا به . .

كان الإسلام غنياً بهؤلاء الفدائيين ، بل كان كل أتباعه مثلاً في تقديته بالنفس
 والنفيس — على درجات بينهم — إذا مست دعوة الحق ، أو أهينت كلمة الصديق ،
 أو انتهكت حرمة العهد والذمام ، أو فصمت عروة الحلف والوئام .

وهذا أنس بن النضر رضى الله عنه ، أحد السابطين الأولين ، والأبطال
 الفدائيين ، يكبر عليه أن يغيب قهرا عن غزوة بدر ، أول غزوة أسس عليها
 جسد الإسلام ، وشهدها النبي عليه الصلاة والسلام ، فيتمنى على الله أن يعوضه
 خيراً مما ضاع منه ، وأن يشهده موقعة يبلى فيها بلاء حسناً ، ويرى ربه فيها —
 وهو أعلم به — أنه وفى العهد ، صادق الوعد ، قد باع نفسه وما له لله ، لا يبتغي
 شيئاً غير فضله ورضاه ! ثم يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر له
 أمنيته . ويوثق لديه عهده : حتى إذا جاءت غزوة أحد ، وما أدراك ما غزوة أحد ؟
 أصيب فيها الغزاة ببعض ما كسبوا ، وأثابهم الله غما بغم بما انحرفوا ، وكادت
 الدائرة تدور عليهم بما تعجلوا ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لذهبت ربحهم ،
 واتحمت آثارهم .

جاءت هذه الفزوة ، فصدق المسلمون حملتهم في معمران الحرب ، وأنحنوا
أهل الشرك تمثيلاً وتنكيلاً ، حتى ولوا مدبرين خاسرين : هنالك برقت لهم
غنائم المشركين عن كذب ، فامتدّت إليها عيونهم ، وتطلعت لها نفوسهم ،
فنسوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالألا يبرحوا مكانهم ، ولو كانت العاقبة لهم :
وهناك أحاط المشركون بهم وقد رأوهم اشتغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فأعملوا
فيهم سيوفهم حتى كادوا يظفرون بهم ! .

وبينا الجيش منكشف مضطرب ، قد تمزقت صفوفه ، وانفرط عقده --
جاء الفدائي الوفي أنس بن النضر رضى الله عنه ، يني بندره ، وير بقسمه ، ويستقبل
الموت استقبالا رهيبا لم يعرف التاريخ مثله ، حتى إذا لقي سعد بن معاذ منهزما
وهو من هو شجاعة وثبات جأش ، صاح به : واها لريح الجنة إنى لأجد ريحها
ورب النضر عند هذا الجبل ! ^(١) وما هي إلا أنفاس معدودة حتى دخل الجنة
فرحاً مستبشراً ، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم
يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من
خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

قال سعد وهو يصف للرسول صلى الله عليه وسلم بإقدام أنس وحن بلائه :
والله ما استطعت يا رسول الله على عظيم بلائى أن أصنع صنيعه أو أن أبلى بلائه !
وقال ابن أخيه أنس بن مالك : ولقد وجدنا به أكثر من ثمانين ثامة ، ما بين
ضربة بسيف ، وطامة بسن ، ورمية بنبل . ولقد شوّه المشركون تمثيلاً وتمطيعة
فلم يعرفه أحد إلا أخيه الربيع بفت النضر ، عرفه بدينانه ، وكان حسن البنان
جميلها . قال أنس : فكنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نرى أن هذه
الآية الكريمة قد نزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين ، رجال صدقوا

(١) واها كلمة تدل على الإعجاب أو الظلم ، كأنه يعجب بريح الجنة وقد تمثّلها أو
أكرمه الله بشدائها . والنضر يجوز أن يكون ابنه الصغير الذى تركه في رعاية الله مؤثرا
عنه الجهاد في سبيله ، وأن يكون أباه الذى كان يبره ويكرمه .

ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه^(١) ومنهم من ينتظر^(٢) وما بدلوا تبديلا . .
وليت شعري فيمن تنزل هذه الآية إن لم تنزل في مثل هذه الصفوة التي اصطفاهما
الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته ؟

ولم تنس أنسا رضى الله عنه دهشة الموقف ورهبة ، أن يعتذر لربه وهو
ماض في سبيله ، عن المسلمين وقد تفرقوا ، ويبرأ من المشركين وقد تجمعوا^(٣) ،
وأن يكون مثلاً عالياً في صدق اللقاء ، والصبر على البلاء ، واستعجال اللحاق
بالشهادة .

ومنقبة أخرى يرويها أنس بن مالك عن عمه رضى الله عنه . تدل على
ماله عند الله من فضل ومنزلة : تلك أن أخته الربيع خاصمت جارية من نساء
الأنصار أغضبته في شيء ، فلطمته فكسرت ثنيتها ، فدعى أهلها إلى الصلح فأبوا
إلا القصاص ، وتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : كتاب الله القصاص ،
وهو صلوات الله عليه لا تأخذ في الحق لومة لائم ولو كان أقرب الناس إليه :
فقال أنس وهو يرجو العفو : أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟ لا ، والذي بعثك
بالحق لا تكسر ثنيتها . فبينما هو يرجع رسول الله راجياً من فضل الله ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يرجعه — عفا أهل الجارية عن القصاص ورضوا بالدية ،
وصدق الله من صدقه . ووفى لمن وفى له . ومن أوفى بعهده من الله . ؟

(١) أمثال أنس وحزرة ومصعب رضى الله عنهم . والنحبة : الموت ، وأصله النذر ،
ولما لم يكن للحى بد من الموت ، وكأنه نذر لازم في رقبته — قيل لمن مات قضى نحبه كأنه
وفى بنذره المحتوم عليه .

(٢) من بقية المؤمنين المجاهدين الذين لم يستشهدوا .

(٣) وما أجل تعبيره في جانب الأولياء « بالاعتذار » وفي جانب الأعداء « بالتبرؤ »
وأن كان غير راض عن صليح الفريضة جيبها .

وأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً رائعاً وحكمة بالغة : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .



لقد كانت الأمة الإسلامية مرفوعة الرأس ، مسموعة الكلمة ، عزيزة الجانب ، أيام أن كان فيها أمثال أنس بن النضر رضى الله عنهم من يستجيون لله وللرسول إذا دعاهم لما يحبه ، لا يتخاذلون ولا يتسواكلون ، ولا يهينون ولا يضعفون ، فإذا ما زلوا زلة فسرعان ما يرجعون ويذنبون . ويتخذون من الشدائد عبراً رائعات ، وعظات بالغات ، ومنارا في الشبهات والظلمات . ثم ضعفت التربية الإسلامية رويداً رويداً لما استنام المسلمون إلى الدعة ، واطمأنوا إلى الراحة ، واستراحوا إلى الترف ، والترف آفة الأمم . وقاتل الهمم ! وكانت مصيبة المصائب أن تركوا الجهاد لما خدعهم الأعداء بالمدينة ، ورموهم بالمصيبة ، وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ، وهم في غمرة ساهون ، حتى إذا تمكّنوا منهم انقضوا عليهم من حيث لا يشعرون !

ألا فليتنبه المسلمون وليستيقظوا ، وليعودوا إلى تاريخهم الأول وبجدهم المؤمل ، ولا سبيل إلى ذلك — إن شاءوا — إلا إذا جاهدوا في سبيل الله . وأعنوا كلمة الله ، واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم .

تواضع

قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : قال لى رجاء بن حيوة : ما رأيت أكرم أدباً ولا أكرم عشيرة من أيك . سمعت عنده ليلة ، فبينما نحن كذلك إذ غشى المصباح ونام الغلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد غشى المصباح ونام الغلام فلو أذنت لى أصلحته ، فقال : إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه ، ثم حط رداءه عن منكبيه وقام إلى الدبة فصب من الزيت فى المصباح وأشخص الفتيلة ، ثم رجع فقال جرير بن عبد الله : يا أمير المؤمنين أعزم علينا كلنا أن نقوم فتوضأ . قال : صدقت ولا علمتك إلا سيداً فى الجاهلية ، فقيهاً فى الإسلام . قوموا فتوضأوا .

محمد صلى الله عليه وسلم

الكلمة التي تفضل بإلقائها من المذيع في أسبوع محمد ، صلى الله عليه وسلم
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمعاهد الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله . في هذا الشهر الكريم يحتفل المسلمون في أنحاء العالم
بذكرى نبي الرحمة ، ورسول الهدى : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ولد في صبيحة
يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك
كسرى أنوشروان . ويوافق ذلك العشرين من أبريل سنة إحدى وسبعين
وخمسة من ميلاد المسيح عليه السلام .

ذكرى ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم هي ذكرى التاريخ والإنسانية عامة .
ولولا ما ابتلى به الناس من التعصب الشديد للأديان ، أو القوميات ، أو موروث
التقاليد عن الآباء والأجداد ، لما كانت هناك ذكرى في التاريخ على طوله وامتداده
أحق أن يكون الاحتفال بها عاما شاملا من هذه الذكرى الكريمة ؛ فإنها ذكرى
رسالة جامعة ، أنقذت الإنسانية مما كانت ترأع فيه من الجحالة ، وتضرب في يدها
من الضلال ، وتسام به في حياتها من الذل والاستعباد وسوء العذاب .

كان يسود العالم في ذلك الوقت مملكتان تهتمسان السلطان في الأرض :
الفرس والروم . والنظام السائد فيهما هو النظام الإقطاعي ؛ فالأرض موزعة
بين الأشراف والسادة ، يقوم في كل ناحية منها رئيس مسيطر ، وسيد متكبر ،
يملكها ومن حملت وما حملت من ناس وأنعام ومنافع وأموال . والكل عبيد له
عاملون ، وأتباع مستخرون ، لا ترد له فيهم كلمة ، ولا يشاركه في شأنهم أحد ،

ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ! . والفرس يحوس يعبدون النار . والدين في الروم حُرقت كلمته ، ومالت عن استقامتها ، وعادت الطبيعة المتأصلة في نفوس الرومان إلى وثنياتها الأولى ، وإن تسمت بالمسيحية وظهرت في مسوح الأحبار والرهبان . وكانت اليهودية في اليمن ، وفي يثرب من جزيرة العرب ، وفي أنحاء شتى من الأرض - قد فقدت هي الأخرى مددها الإلهي ، وأظلمت على أهلها السيل ، منذ أغلقوا قلوبهم وأبصارهم عما أنزل الله على موسى من هدى وحق ونور . وجزيرة العرب شر من ذلك كله تهم في جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، لا تخضع لقانون من وضع الناس ، ولا لشريعة من وحي السماء : وحياة القبيلة هو نظامها الأساسي ، لا يحسب العربي أن أحداً من غير أهل قبيلته تربطه به رابطة ، أوله عليه حق . فكل دم غير دم القبيلة هدر ، وكل عرض غير عرضها مباح ، وكل مال غير مالها غنيمة : هذا إلى فقر مدقع ، بلغ بهم أن يقتلوا الأولاد خشية الفقر ، وإلى عنجية طاغية ، بلغت بهم أن يثدوا البنات خشية العار ، يحيط بذلك كله وثنية مستحكمة ، ألهمت كل ما استطاعت تأليه من مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء : إلا أن هذا الجانب القائم المظلم من الحياة العربية لم يؤثر على جانبها الآخر الوضيء الذي لها أن تكون من بين بلاد الله أهلاً لأن تحمل أعظم رسالة وصلت من الله إلى خلقه ، وأن تجاهد في سبيلها جبايرة الأرض من الملوك ، وأساطين العقل من الفلاسفة ، حتى قهرت الأولين بعدلها وقوتها ، وأقنعت الآخرين بحقها وهداياها .

نقول : إن ذلك الجانب القائم المظلم من حياة العروبة في جاهليتها لم يؤثر ، ولم يكن من شأنه أن يؤثر ، في هذا الجانب المشرق الوضيء ، بل لعل الجانبين جميعاً هما النتيجة لحياة العرب في جزيرتهم القاحلة الجرداء ، فهما جانبان من الخير والشر ، هياً لها الأول منهما أن تحتل في نفسها من الفقر والضر وعيش البداوة ما أصابها في جاهليتها من ذلك كله ، وهياً لها الثاني أن تحتفظ في نفسها من أصول الفضائل لخيرها وخير الناس جميعاً ما لا يمكن أن تغرس أصوله ، أو تزكو زروعه ، إلا في تلك النفوس العزيزة الكريمة التي تربت على الشجاعة والسماحة والسخاء وإباء الضيم ، وعاشت دهورها الطويلة بهذه الصفات ، على أنفة لا يجذبها حطام الجبارين ، وفي منعة من إذلال الحاكين وبطش الغالبيين .

بين المؤمنين والملحدین

نشرنا في الجزء السابق كلاماً عن الإلحاد والعلماء ، وأتينا على آراء بعضهم ، فكان لهذا العمل وقع عظيم في نفوس القارئین ، وخصوصاً الشبان المنخرجين من الجامعات منهم : فقد كانوا يظنون أن أكثر الناس علماً هم أصعب الملحدین شكیمة ، فإذا بهم يرون أنهم كانوا أكثر الناس شعوراً بوجود الخالق ، وأحرصهم على إعلان ذلك عنهم ، وهذا مصداق لقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . حصر سبحانه وتعالى الخشية على وجهها الأكمل في العلماء ، لأنهم بما أوتوا من صفات النظر العميق ، والتحليل الدقيق ، يقفون من أسرار الابداع الإلهي في الوجود ، ونواحي الإعجاز فيه ، على ما لا يقف عليه سواهم ، فيكون إيمانهم أعاق بالنفس ، وأبعد غوراً فيها من إيمان غيرهم من الواقفين عند حدود القشور الظاهرة للوجودات .

وقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، فجعل شهادة العلماء بوحدايته ، في درجة شهادة الملائكة ، وهم من لا يتطرق اليهم الشك ؛ وفي هذا من الاعتداد بآراء أهل العلم ما لا مزيد عليه : وما ذاك إلا لأن العلم نور معنوي يظهر من خفايا الأشياء ما لا يراه الذين لا يستعينون به .

قال العلامة الأفاضلي (شفرول) Chevreul وهو عالم من أعلام علم الكيمياء الفرنسيين ، وقد أراد أن يصمم جرأة بعض غلاة الماديين في زمانه بوصمة عار لا تمحى :

« لقد سألت نفسي ، وأنا في زمان يتكرر الزعم فيه بأن العلم يؤدي إلى المادية : ألا يكون من الواجب على الرجل الذي أمضى حياته في وسط كتبه ، وفي داخل معمل كيميائي ، باحثاً عن الحقيقة ، أن يهبط محتجاً على قول مناقض للعلم كل المناقضة ؟

.. وأنه لهذا السبب صرح بأنه لم يكن قط لا أدرياً ولا مادياً ، وهو على استعداد لأن يبين أسباب ذلك .

« نعم لم أكن قط لا أدرياً . فإني معتقد بوجود ذات إلهية أبدعت تناسقين عظيمين : تناسق عالم الاجمادات الذى يكشف عنه أولاً علم الميكانيكا السماوية ، وعلم الظواهر الذرية : وتناسق العالم العضوى الحى . فلم أكن قط فى أى عهد من عهود حياتى مادياً . لأن عقلى لم يستطع أن يدرك بأن هذين التناسقين ، وهذا الفكر الانسانى كانوا من نتائج الاتفاق والخطب . »

وهذا الأستاذ (دولاباران) De Lapparent العلامة الجيولوجى الكبير قد قال :

« فضلاً عن أنى لم أضق ذرعاً بعقائدى ، فأنا على عكس ذلك أجد منها باعثاً قوياً لمداينة أعمالى العلمية . »

وقال الأستاذ الرياضى المشهور (كوشى) Cauchy :

« ليست عقائدى ثمرة أوهاى الوراثة ، ولكنها نتيجة تحقيقاتى العميقة . »

وقال الفيلسوف الجليل (جوتلوب شيمون) :

« إن فكرة الألوهية هى المركز الذى تلتقى فيه جميع طرق التفكير الانسانى . »

وقال الشاعر العالمى الكبير (فيكتور هوغو) وهو يخطب المجلس التشريعى فى ١٥ يناير سنة (١٨٥٠) .

« أما عن نفسى فليسمح لى بأن أعلن على رموس الاشهاد بأنى أعتقد بوجود الله ، وهو فى نظرى أثبت وجوداً من هذا الوهم الضئيل الذى نسميه بالحياة . فهو ماثل أمام عيني لا يبرحهما . وأنا معتقد بوجوده بجميع ما فى الاقتناع من قوى : وبعد دراسات كثيرة أصبح الحقيقة العليا لعقلي ، والتعزية المثل لروحي . »

وقال العلامة المؤرخ الطبيعى فابر Fabre :

« إنى أعتقد وجود الله ... وبدون ذلك لا أفهم شيئاً ، أى يصير كل شيء أمام نظرى ظلاماً بهيماً . »

وقال العلامة الكبير كاود برنار Claude Bernard وهو أشهر فيزيولوجي
أنجبه البشرية :

« إن الفلسفة الحسية والمذهب المادى كلاهما فى نظرى غير معقولين ولا يمكن
الدفاع عنهما .. »

وكتب الفيلسوف المشهور (مونتيني) Montaigne :

« إن الكفر بالله رأى مناقض للفطرة السليمة وسخيف ، ويصعب إقناع
العقل بصحته مهما كان هذا العقل ضعيفاً ومضطرباً .. »

وصرح (دنيس كوشان) العضو بالأكاديمية :

« المذهب المادى قد رُفِضَ رفضاً باتاً ، فإن المذهب الذى يفضى الى قتل
الضمير ويسلب الانسان شعوره بالمسئولية ، لا يعقل أن يكون له سلطان على
على العقول .. »

أما المؤرخ الطبيعى الكبير (فابري) Fabre المقدم ذكره فقد صرح بما يأتى :
« كل عهد له أهواء جنونية . فإني أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية .
وهو مرض العهد الحالى . وأيثر عندي أن ينزعوا جلدى من أن ينزعوا منى
العقيدة بالله .. »

بعد أن نقلنا هنا ما نقلناه من أئمة العلوم الطبيعية الخالدين من أهل العصر
الحاضر ، نرى من العدل أن نأتى على آراء أئمة الملحدون فى إيثارهم ما هم عليه من
الإنكار ، على ما عند خصومهم من الإثبات . ولعل أكثر القراء يود أن يعرف
ذلك حتى يكون فى تقديره للعلماء المؤمنين على بينة .

يعجب القراء إذا قلنا لهم إن إلحاد الملحدون لا يستند على شيء غير مرض
نفسانى ، وهو تصریح منا جريء نرجو أن نقنعهم به بنقل بعض أقوالهم .

أشهر الكفار المعاصرين البيولوجى المشهور (لودانك) Le Dantec مدرس
البيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون . له كتاب أسماه : (إنكار الله)
قال فى صفحة ٣٨ منه :

« إن سألتني عن علة إنكارى لوجود الله ، فإنى سأفضى بها إليك فى إيجاز .
ولكنى لا أخفى عنك بطلانها ، وإنى لأعتبر نفسى عاقلا حين أقول لنفسى على نحو
ما فعل الميسو (دولا بالليس) : إذا كنت أعتقد وجود الله ، فذلك لأنى كافر به .
وهذا دليل جيد لا يمكننى أن أقيمه على عدم إيمانى . فأنى منكر لله على نحو
ما أنا بروتونى (بروتون قطر فى فرنسا) ، كما يكون الانسان أسمر أو أشقر دون
أن يكون قد أراد ذلك .

« وليس لدى حامل شخصى يحملنى على أن أدلل على أن نكران الله أحسن
من أى شىء آخر ، لأنى لم أستطع أن أتذوق شيئا آخر .
وقد نقل العلامة الدكتور (ليون ووتى) عن الأستاذ لوداتك هذا القول
وعقب عليه بقوله :

« من المحال أن يكون الانسان أوقح مما ترى ، وفى الوقت نفسه أبعد
عن المنطق . »

« وإليك إماما آخر من أئمة الماديين وهو الأستاذ (بوخنز) الالمانى فإنه
قال فى كتابه اقوة والمادة :

« إن الفرض الذى مؤداه وجود قوة خالقة لا يمكن قبوله . »

قال هذا ولم يعط دليلا واحدا لإثباته . والقاعدة المقررة عند العلماء ولا يشذ
عنهم الماديون : أن العلم لا يمكن أن يبنى على الفروض ، فكل قول لا بد أن
يقوم على صحته أدلة محسوسة . فهل لديه دليل أو شبه دليل على أن السكون يمكن أن
يوجد وتضطرب كائناته بدون قدرة خالقة ؟ حقا إن هؤلاء الملحدون لا يستندون
فى إلحادهم على شىء غير المزاعم الباطلة .

ولا نفسى أن نأتيك بمثال آخر من تحككاتهم فقتبسه من كتاب الفيلسوف
هيجل الالمانى Hegel ، الموسوم بالمنطق الكبير ، وكأنه كما يقول الدكتور
(ليون ووتى) وصفه بالكبير تهكما . فقد أتى فيه على نفى الخالق بدليل نعته بأنه غير
قابل للدحض وهو هراء محض . وإليك هذا الدليل :

المادة شيء غير الروح .

والروح شيء غير المادة :

فهما إذن متغايران .

وإذن فهما شيء واحد .

قال الدكتور (ليون ووتى) عقب هذا الدليل : ، على اعتبار أن هذا دليل لا ينقض وخاصة بوصف أنه من المناطق الكبير ، فهذا نجاح عظيم ! أما نحن فلا نرى فيه إلا شيئاً واحداً لا يمكن نقضه ، وهو أنه ضرب من الخبل فى عقل هذا العالم المادى المزعوم . .

وزاد الدكتور المذكور على هذا قوله :

، إليك مثالا آخر من الهذيان التى تعترى هؤلاء الماديين . وهو صادر من الأستاذ (تين) Taine . ونحن إنما اخترناه لأنه صادر من فيلسوف مشهور من الملحدين . فقد قال :

، ليست المادة بشيء غير صورة وهمية . وكل جسم ليس فى حقيقته غير خيال ملون ومركز ومعين ومتحيز . فهو فى الحقيقة مجموعة قوى ، وكل مجموعة قوى ليست بشيء ، فينتج من ذلك أن الجسم الذى ليس هو فى الواقع غير مجموعة قوى ليس بشيء . .

وقد عقب الدكتور (ووتى) على هذا بقوله : ويكون قياساً على ذلك أننا لسنا بموجودين أيضاً ! إن من العبث دحض أمثال هذه الغباوات .

محمد فريد وجدي

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
يذيع كلمة قيمة عن هذا العيد بالراديو

يوافق اليوم الحادى عشر من شهر فبراير تاريخ ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ، وقد جرت العادة أن يحتفل به الشعب المصرى وحكومته احتفالا عظيما ؛ بإقامة الزينات ، ورفع الاعلام ، وتسيير المواكب ؛ فرأى جلالاته مراعاة للتأثر العام بما أصاب فلسطين ، أن يقتصر الاحتفال به على التسميات ؛ فضرب جلالاته بهذا العمل مثلا من أروع الأمثلة على الشعور العالى ، والنظر الرفيع . ونزولا على الإرادة الملكية السامية رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر أن يكتفى بإذاعة كلمة بالراديو فى هذا اليوم الأغر ، تجمع من مناقب جلالة الملك ، ومآثره الخالدة ، ما لا بد من الإشادة بذكره ، والنيمن بنشره : فجاءت على إيجازها بليغة جامعة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس المستمعين من سائر الأقطار العربية .

ونحن تيمناً بهذا العيد الكريم ننشر كلمة فضيلته ، ونضم صوتنا إلى صوته فى الدعاء لحضرة صاحب الجلالة ، بأن يطيل الله فى حياته ذخرأ لأمته ، وملاذاً لرعيته ، حتى يتم ما بدأه من إبلاغ بلاده سائر أمانيتها ، وجمع كلمة الأمم العربية ، وتوحيد جهودها ، حتى تبلغ شأوا وأائلها علماً وعملاً ومدنية .

بسم الله وعلى بركة الله نفتتح هذا البرنامج الحافل الذى أعدته دار الإذاعة المصرية ابتهاجا بعيد الميلاد الملكى لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، ونسأله معها بكل قلوبنا فى الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة التى تقدرها البلاد حق قدرها ، وتفرح بها من حبات قلوبها ، والتى تجد فيها مذكرا لها بتلك النعمة الكبيرة التى أنعمها الله على البلاد ، وهى ميلاد الفاروق العظيم .

أجل : فقد كان ميلاد جلالته طالع من وإقبال على الأمة ، وبشير خير وإسعاد على شعب وادى النيل ، الذى وجد فيه أميرا محبوبا ، وولى عهد مبارك النقية ، ميمون الطلعة ؛ كما اقترن ميلاد جلالته بفيض من تحقيق الآمال الوطنية ، وبلوغ الأمانى القومية ، واسترداد سلطة الأمة ، واسترجاع حقوقها الدستورية ، واستكمال أهدافها السياسية .

وما كاد جلالته يعتلى أريكة الملك ، ويباشر حقوقه الدستورية ، حتى نهض بالبلاد نهضة قوية فتيحة ، وتقدم بها تقدما ملحوظا ، وخطا بها خطوات واسعة فى جميع نواحي الثقافة وأساليب الحكم ؛ فقد استقر فيها النظام الجامعى ، وارتقى فيها التعليم بكل أنواعه ، وساد فيها الحكم النيابى القائم على احترام سلطة الأمة وتمثيل رأيها ، والأخذ بنظام الشورى بينها ؛ وهكذا بعث جلالته فى كل جانب من جوانب الحياة العامة قبسا منيرا من روحه الوضاء ، فأثار السيل ، وعبّد الطريق ، وسما بالأمة إلى الجوزاء ، وقاد السفينة فى وسط الشدائد والأزمات كأحسن ما يقودها ربان ماهر ، ومدرّب حكيم بصير بالعواقب .

ولقد كان فى مقدمة الإصلاحات جميعها ، وفى طليعة هذه المآثر كلها ، عناية جلالته بالتعليم الدينى ، واهتمامه بجامعة السكينة ، وبمعاهده الثانوية والابتدائية ؛ فقد أولاها جميعا مزيد رعايته ، وحبها سابغ عطفه ، وكلاهما بإرشاداته السامية ، وتوجيهاته العالية ، وحاطها بعينه الساهرة على مصلحة شعبه ، ومكّن لها من أن تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل ، وأن تقوم بواجبها آمنة مطمئة فى جلال رعايته وحمايته .

ولقد أوحى إليه دينه القوي، وإيمانه الصادق، ووجهه للحق، وتقديره للسلام، وإخلاصه في العمل، وانتصاره للعدالة، أن يعنى بشؤون العروبة والإسلام، وأن يجعلها في المكان الأول من اهتمامه : فوطد أواصر المودة والصداقة والمحبة بين جلالته وبين ملوك ورؤساء الدول العربية، وقوتى وشائج الوفاق والوئام بين أقطابها، وربط بين قلوب شعوبها وأممها برباط وثيق من الشعور والإحساس، وعطف على زعمائها وأبطالها اللاجئين إلى حماه عطفًا بارزًا ملموسًا، وانتصر للشعوب المظلومة منها انتصارًا نشاهد له كل يوم آية من آيات المجد، ومنقبة من مناقب الشرف والفخار، حتى لقد أصبحت كل تلك الشعوب بفضل هذه السياسة الرشيدة، والتصرفات الحكيمة، وهذا العقل الراجح، والتفكير الناضج، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وحتى صارت كأعضاء الجسم الواحد إذا تأثر منها عضو بشيء شاركته سائر الأعضاء الأخرى .

هذه إشارة عابرة إلى بعض آثار جلالة العلمانية، وأعماله الإصلاحية والعمرانية، ومواقفه العربية والإسلامية : فإذا ما انتقلنا من كل ذلك ويتمننا نحو ما عرف عن جلالته من حرص على العدالة، وحب الإنصاف، واحترام للحقوق، وتقدير للعاملين : ومن بر بالفقراء، وأخذ بيد الضعفاء، وعطف على المحتاجين، وتشجيع للناهضين، وتكريم للنايئين : فإننا سنجد مجال القول فسحياً، وميدان الكلام متسعاً .

خطب أحد فصحاء العرب بين يدي ملك عظيم، فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وأفضل الملوك أعظمهم نفعا » .

وإننا إذا أخذنا هذا القول ونظرنا من ثناياه إلى أعمال مليكنا المحبوب فإننا لا نشك في عظمة جلالته، ولا نتردد في أفضليته : لأن نفعه عام، وبره شامل، وخيره وافر؛ ولأن أريحيته يعرفها الصغير والكبير، والغنى والفقير، ويتحدث عنها

العمال في أعمالهم ، والطلاب في جامعاتهم ومعاهدهم : فانهم يلبسونها كل يوم فيما تجود به مكارمه العالیه ، وتسخر به أياديه المشكوره .

وإذا كان النفع — كما يقول ذلك العربي البليغ — هو مقياس العظمة وعنوانها ، وعماد الأفضلية وقوامها ، فمن غير الفاروق المحبوب يكون أهلا لها ، وهو أعظم الناس نفعا لبلاده ، وبرا بشعبه ، وحبذا على رعيته ، وإخلاصا لمصلحتها .

لقد أحسنت دار الإذاعة المصرية كل الإحسان في إعدادها هذا الاحتفال بعيد الميلاد الملكي السعيد : فانها إذ تفعل ذلك إنما تحتفل بميلاد ملك عادل صالح مصلح ، مسلم غيور مخلص ، وفي دمقراطي ، ساهر على مصلحة شعبه ، عامل على رقي أمته ، جدير بكل حب ووفاء ، وتحقيق بكل إخلاص وولاء .

إننا إذ نشاركها هذا الحفل الباهر ، ونشكرها على القيام بهذا الواجب ، نضرع إلى الله جلّت قدرته أن يحفظ جلاله مولانا الملك المعظم ، وأن يبارك في عمره السعيد المديد ، وأن يكأله بالنصر والتأييد ، وأن يحوطه برعايته وتوقيفه ، وأن يحيه حياة طيبة مباركا فيها ، نعم بنفعها العباد والبلا .

كما أننا ننتهز هذه الفرصة السعيدة لنرفع إلى جلاله فروض التهنئة والتبريك ، مع خالص الدعاء وصادق الولاء . والسلام عليكم ورحمة الله .